

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون

في الثقافة والحضارة

الدكتور ياسين فرج

8
٤

ثقافة والحضارة

منشورات وزارة الثقافة والفنون - الجمهورية العراقية
دار الرشيد للنشر

سلسلة دراسات _____ ١٩٧٩

(١٧٥)

80-961192

الدكتور الياس فرح

Farah, Ilyās

فِي الثَّقَافَةِ وَالْحَضَارَةِ

♂

1979

البعث وحِوَارِ الحَضَارَات

بمناسبة الذكرى ٣١ لتأسيس
حزب البعث العربي الاشتراكي

* القيت هذه المحاضرة باللغة الفرنسية في باريس ضمن اطار
النشاط العام للمركز الثقافي العراقي بتاريخ ١٦-٤-١٩٧٨.

BS 799 3-6-84

29/5/84

80-96/192

DS 70
.7
.F33
1979
Orien
Arab

80-96/192

حضرات السيدات والسادة

أيها الاصدقاء •

تقدم لنا الذكرى الواحدة والثلاثون لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي ، فرصة هذا اللقاء السعيد معكم ، وفرصة الحوار الهادف الى جلاء صورة حركة تاريخية ساعدة في المنطقة العربية ، أصبح لها قاعدة انطلاق وطيدة في تجربة العراق الاصيله التي سوف نحتفل بالذكرى العاشرة لها في ١٧ تموز القادم •

ان صورة البعث ما تزال غير واضحة تماما خارج المحيط العربي • وهي جزء من صورة وطن عربي ، ما تزال بدورها غائمة

صحيح أن هناك اوساطا لا مصلحة لها في أن ينشأ حوار
جدّي فيما بيننا ، قامت وما تزال تقوم بدور سلبي قائم على تشويه
الحقائق • وصحيح أيضا بأن تقصيرا متبادلا قد وقع في ترجمة
الافكار والمواقف بصورة مباشرة ، كل الى لغة آخر ••• غير أن
ذلك كله لم يكن كافيا لحجب صورة البعث والوطن العربي عن
الذهن الاوربي ، وللحيلولة دون تكوين صورة واقعية مطابقة
لحقيقتهما • فاختلاف السياق التاريخي والمنظور الحضاري كان
يشكل عاملا في اختلاف طريقة التفكير ، وحركة التفكير ، وتكوين
المفاهيم ذاتها • وبالتالي يخلق نوعا من الالتباس وسوء الفهم
المتبادل ، لا يمكن ان يتغلب عليه سوى الحوار الحضاري ذاته •

وسوف اكتفي ، من أجل توضيح هذه النقطة بأمثلة مشخصة
مستمدة من تحديد (هوية حزب البعث) لنفسه • فحزب البعث
العربي الاشتراكي ، حزب يمتلك (ايدولوجية) متميزة ، تستند
الى مفهوم (القومية العربية) ويقوم على (تنظيم طلائعي) يمتد
على المنطقة العربية كلها ، لأنه يؤمن (بالوحدة العربية) • فتنظيمه
(قومي) ونشاطه لا ينحصر في جزء من اجزاء الوطن العربي • كما
أنه يستند الى قاعدة جماهيرية كادحة مناضلة والى طبقة عاملة
عربية لأنه يؤمن (بالاشتراكية) ، ويهدف من خلال (مفهومه
الانبعائي) الى تحقيق بناء الشخصية العربية ، لأنه يؤمن (بالحرية) •

وغير بيّنة • هذا ، بالرغم من أن المنطقة العربية تزداد أهمية بعد الحرب
العالمية الثانية ، نظرا الى أهمية احتياطها النفطي ، والى كون التحالف
الامبريالي - الصهيوني ، قد حولها الى ساحة صراع ذي ابعاد
عالمية • فضلا عن أن المنطقة العربية ، كانت في الماضي ، مهد
الحضارات الاولى في التاريخ (في العراق وفي مصر) ، ثم أصبحت
بين القرن السابع والثالث عشر ، بؤرة تفاعل حضاري خصب مع
العالم عامة ومع أوروبا خاصة • وهي اليوم تشكل ميدانا لنهضة
حديثة ذات ابعاد حضارية جديدة •

فعدم الوضوح في صورة العالم العربي • وكذلك في صورة
الحركة التي حاولت أن تعبر عن نهضته المعاصرة - حزب البعث -
لا يمكن أن يخدم قضية الحوار بين العرب وأوروبا ، وقضية الحوار
بين الحضارات بوجه عام • هذا الحوار الذي ينبغي أن ندفع به
الى أمام • لأنه المدخل الصحيح لتقويم صور الاعوجاج في عالمنا
الراهن ، حيث يجرى تشويه كل شيء ، باسم الديمقراطية حيناً
وباسم الاشتراكية حيناً آخر ، وباسم السلام في معظم الاحيان •

ولئن ساهمت عدة عوامل كثيرة في اعاقه الحوار الحضاري
المطلوب ، فان أخطر العوامل ليست هي العوامل المكشوفة
الواضحة •

وهكذا ، فان حزب البعث ، عندما يحدد هويته ، فانه يستخدم (اصطلاحات) متداولة كالايدولوجية والقومية والثورة والاشتراكية . الخ . الا انها (مستعملة) في سياق تاريخي تتعدد فيه المنظورات الحضارية . لذلك فانها لا تقابل مفهوما موحدًا ومتطابقًا في الذهن العربي والذهن الاوربي . (فالكلمات) الواحدة هنا لا تستطيع أن تتجاهل اختلاف (مدلولاتها) . لذلك فهي بحاجة الى (حوار داخلي) من أجل أن تأتي (العبارة) تجسيدًا لفهم مشترك .

لنتوقف عند اصطلاح (الايدولوجية) ، لكي نتبين كيف أن اختلاف المنظور الحضاري ، هو الذي جعل بلدان العالم الثالث تنظر الى أهمية (النضال الايدولوجي) نظرة مختلفة تماما عنها في بلدان أوروبا وأمريكا .

ففي حين تظهر موجة من العداء للايدولوجيات (في الستينات) داخل امريكا ، تبشر (بنهاية الايدولوجيات) ، وتلقى هذه الدعوة صدى لها في أوروبا ، فتعقد من أجلها الندوات والمناقشات التي اتهمت (الايدولوجية) بالتحجر الحتمي ، والاطلاقية ، والتبسيطية ، والتجريدية ، والتبريرية ، والتعسفية ، والديماغوجية . الخ الى غير ذلك من الصفات السلبية المحضنة .

١٠

نجد بالمقابل ان (الايدولوجية) تأخذ في ظروف العالم الثالث معنى (الاختيار المصيري لطريق الاقناذ) ، ولاستعادة الهوية الثقافية والقومية (المفتقدة) فهي سلاح نضالي من أجل التحرر .

وهكذا نجد أن النزعة (البرجماتية) التي تكمن خلف الموقف الاول ، لا مجال لها في التجارب التي تتصدى لتناقضات (اشجارية) في واقعها القومي والاجتماعي ، تفرض (الثورة الشاملة) كاختيار وحيد ، للنهوض بالمجتمع .

وهذا ما دفع أحد المفكرين الافريقيين^(١) E.P. Elungun

الى اعتبار (الايدولوجية) شرطًا للتطور في افريقيا اليوم . لانها تشكل (روح الحضارة) أو عملية (صنع الحضارة) . فالتحرى عن الاصاله ، واكتشاف الذات ، والاعتماد على النفس ، وعدم نقل المفاهيم بصورة آلية وبمعزل عن سياقها التاريخي . الخ كل ذلك انما يعبر عن ادراك واضح لاهمية النضال الايدولوجي . فهو ليس ترفًا كماليا أو مجرد وعد طوباوي بمستقبل مشرق ، بل هو أداة فعالة للتأثير في مجرى التاريخ ، تعتمد على (وعي لقوانين حركة الواقع القومي) . لذلك فان البعث عندما وجد نفسه في مطلع الاربعينات أمام عدة تيارات ايدولوجية تحدد طرقًا مختلفة للنهضة العربية ،

(١) انظر: Présence Africaine. N° 103. 1977

كان عليه أن يختار بين أن تكون هذه النهضة جزئية أم كلية ،
سطحية أم عميقة، منسجمة مع ثقافة الامة وتاريخها وشخصيتها، أم
أن تكون امتدادا للعالم الخارجي المحيط بها . وأخيرا ، أن تكون
نهضة طبقة أم نهضة أمة وجماهير كادحة .

وهكذا كان عليه أن يستوعب طبيعة المرحلة التي تمر بها الامة
العربية ، وطبيعة العصر الذي تعيش فيه ، وأن يحدد التناقضات
الاساسية القائمة في المجتمع العربي ، وأن يحدد أهداف النهضة
العربية ، من أجل أن يحدد منظوره الحضاري (الانبعاثي) ، الذي
تجاوز به (المنظور المحافظ) المتمثل بتيار الدينسي التقليدي ،
و (المنظور الاصلاحى) المتمثل بتيار التجديد الديني ، المقلد لحركة
الاصلاح الديني في اوربا ، و (المنظور القومي العلماني) الذي
كان امتدادا للمفاهيم الليبرالية في الغرب ، و (المنظور الاشتراكي
الأممي) الذي كان يقفز من فوق المسألة القومية ، و (المنظور
الاقليمي) الذي كان يعجز عن النظرة الكلية الشاملة الى القضية
العربية ، ويكتفى بالعمل داخل قواقع التجزئة السياسية التي فرضتها
المرحلة الاستعمارية .

فالايديولوجية كانت بمثابة اكتشاف لطريق التحرر العربي
والوحدة العربية والاشتراكية في الوطن العربي . تلك هي نقطة
الانطلاق التي ينبغي أن تكون ماثلة أمامنا بوضوح عندما نتحدث

عن حزب البعث ، وعن الوطن العربي ، وعن منظورهما الحضاري .
أما النقطة الثانية التي يجدر بنا أن نتوقف عندها ايضا ، لكي نزيل
الالتباس الذي يسببه اختلاف السياق التاريخي . فهي تلك التي
تتعلق بمفهوم (القومية) .

ان اختلاف المنظور الحضاري يسبب بدوره التباسا في فهم
مدلول (القومية العربية) . ذلك أن اصطلاح (القومية)
و (الايديولوجية القومية) و (الامم الكادحة) توحى الى الذهن
الاوربي باشياء مختلفة تماما عما تعنيه هذه العبارات في بلدان
العالم الثالث ، لا بل تعني شيئا مناقضا أحيانا .

فالقومية في ظروف الامم المناضلة من أجل استقلالها الوطني
وروحيتها وتقدمها من أجل التخلص من آثار وذيول المرحلة
الاستعمارية واستعادة شخصيتها الثقافية وقدرتها على التفاعل
الحضاري . . . نعم في مثل هذه الظروف ، فإن القومية لا يمكن أن
تكون (ايديولوجية محافظة تعبر عن مصالح طبقة بورجوازية) .
وكل محاكمة بالمجانسة يعمد اليها الذهن الاوربي سوف تضلله
وتنتهي به الى احكام ومواقف خاطئة تماما .

فالقومية في ظروف كظروفنا هي أولا أكثر من مجرد
(ايديولوجية) لانها تعني الانتساب الى واقع اجتماعي وثقافي

أيها الاصدقاء

لقد أدرك العرب ، بعد أن ظلوا ردحا من الزمن ، امتد على ستة قرون من (الانحطاط) ، جاءت بعد ستة قرون من (النهضة) سبقتها ، أن نهضتهم الحديثة رهن بتحقيق ثورة عميقة شاملة بمستوى الانبعث ، حتى يتمكنوا من المشاركة الجدية في مسيرة التقدم في العالم المعاصر .

وقد كانت ولادة البعث تعبيراً عن هذا الإدراك . وقد جاء بمثابة تنوير لتطور بدأت ملامحه تظهر منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر مع الجيل الأول من مفكري النهضة العربية المعاصرة . فهو امتداد للأفكار وللانتفاضات وللنوادي والمؤتمرات العربية ، التي عبرت عن معاناة فكرية ونضالية كان لا بد أن تبلور فكرتها وأن تنضج أدواتها . ولكنه جاء في الوقت نفسه بمثابة بتر واع وإرادي معها . لأنه لم يكن مجرد امتداد . فملء الفراغ الأيديولوجي والتنظيمي والسياسي الذي كانت تشكو منه حركة النهضة العربية المعاصرة ، كان يحتاج إلى قفزة في الوعي وفي الاستعداد النضالي يتجاوز ما هو معروف ومألوف من أنماط العمل السياسي .

وقد كانت مرحلة الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ بمثابة

يصارع تناقضات أساسية . والطبقة البورجوازية في بلدان العالم الثالث عاجزة عن أن تلعب الدور التحرري الذي لعبته الطبقة البورجوازية في أوروبا قبل أكثر من قرنين . لأن تكوينها وشروطها مختلفة تماما .

فالقومية في سياقنا التاريخي هي تعبير عن قومية جماهير كادحة محرومة من ثروات الوطن الضخمة . وهي وعي مستعد للذات القومية ، بعد مرحلة طويلة من الضياع والاستلاب والانحطاط . فهي (الشعور بالحرية) وهي (نضال) من أجل تحقيقها ، وهي دفاع عن وجود قومي مهدد دوماً بالعدوان والتقسيم والتفتيت ونهب الثروات وباستمرار التخلف . وهي وعي (لوحد المتناقضات الأساسية) تفرض (وحدة الأهداف الكبرى) ، في الوحدة والحرية والاشتراكية) . أنها انتقال حاسم بمجتمعات التخلف والتجزؤ والتبعية والاستغلال والهامشية التاريخية ، من عصر إلى عصر . فهي عملية حضارية لأنها تحرر وتجدد وانبعاث وحركة جماهير . وهي اشتراكية بطبيعتها ، لأنها (أيديولوجية لامم الكادحة والطبقات الكادحة التي تشكل مع الطبقة العاملة - طليعتها - حقيقة الأمة . في حين تقف الطبقات المستغلة الرجعية إلى صف اعداء تحرر الأمة وتكون حلفاء واحداً مع الامبريالية والصهيونية .

مخاض حقيقي لولادة هذا المستوى الجديد ، لأن حركة النهضة العربية قد تفاعلت بعمق مع أحداث الحرب • فقد كانت مرحلة الثلاثينات التي سبقتها ، خصبة تؤشر صعودا وتحفزا للتوثب • فجاءت أحداث الحرب لتعمق هذا الاستعداد وتحققه في آن واحد •

كانت كتابات البعث الأولى قد بدأت منذ منتصف الثلاثينات تستشرف ملامح مرحلة جديدة في النضال العربي • ففي مقالتيين منشورتين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ (٢) تتحدثان عن (عهد البطولة) كتنقيص لعهد الانحطاط • وعن (الاشتراكية) كشرط لتحقيق انسانية الفرد والجماعة • يضع البعث اللبنة الأولى لبنائه الفكري الجديد ، ويضع الاجيال العربية أمام نداء مسؤوليتها التاريخية •

وكانت حركة المطالبة بالاستقلال في سورية والعراق ومصر ، والثورة الكبرى في فلسطين ، قد جعلت من الوطن العربي في النصف الثاني من الثلاثينات بوتقة انصهار تنضج من خلالها ملامح مرحلة جديدة من مراحل النهضة العربية المعاصرة • لذلك كان من المنطقي ان تتفاعل حركة النهضة العربية بعمق مع أحداث الحرب العالمية الثانية ، وأن تتسكن من استيعاب صورة التغير العميق الذي تحدثته تلك الاحداث في خارطة العالم السياسية والحضارية • وبالتالي أن

(٢) انظر : ميشيل عفلق • (في سبيل البعث) • (عهد البطولة) و (ثروة الحياة) •

تستشرف من خلالها ملامح العالم الجديد الذي ولد بعد الحرب ، ومكان القضية العربية فيه •

لذلك سريعا ما تحولت مفاهيم النهضة العربية وخطها النضالي عن دائرة (التمرکز حول الآخر) • أي التبعية والتقليد والاكتفاء بنقل آلي للافكار من اطارها الثقافي ، الى اطار آخر مختلف تماما • تحولت الى دائرة (التمرکز حول الذات) لاكتشاف (الطريق الخاص للنهضة العربية) ، والى دائرة (التفاعل الحر مع الآخر) حتى تكون النهضة العربية جزءا من التحول الحضاري الشامل للعالم المعاصر • ولم تمض نهاية الاربعينات حتى كانت الايدولوجية العربية الثورية قد تبلورت في نظرية (الوحدة والحرية والاشتراكية) • فكان تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٤٧ بمثابة انطلاقة جديدة وتدشيننا لمرحلة أعلى في النضال العربي التحرري •

وقد ظهرت ملامح هذا النضج المبدي في تلمس الطريق الخاص للنهضة العربية في السنوات العشر التي تلت ١٩٤٨-١٩٥٨ • فقد أخذت التحولات التي حدثت في العديد من الاقطار العربية شكل تجارب نضالية متجاوبة مع بعضها البعض ، وتحول التجارب العفوي ، الى تنسيق ، ثم الى وحدة (عضوية) في النضال العربي ، كانت خلالها الجماهير العربية في الخمسينات تتحرك كموجة واحدة من المحيط الى الخليج • وكانت ولادة البعث المتفجرة في

أقطار المشرق والمغرب العربي ، تلتقي مع الناصرية في مصر ، وثورة الجزائر ، وثورة ١٤ تموز في العراق ، ومع حركة الاستقلال في تونس والمغرب وليبيا والسودان ، على طريق النضال المشترك ضد الاحلاف الاستعمارية ، وفي وجه التحالف الاستعماري الصهيوني الذي كشف عن نواياه تجاه حركة التحرر العربي في العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ . فكانت وحدة مصر وسورية عام ١٩٥٨ تويجا لهذا الصعود في حركة النضال العربي ، التي لعب فيها البعث دورا قياديا خلال سنوات الخمسينات .

لقد كان الوطن العربي خلال هذه الفترة في حالة صعود بالرغم من تحديات المرحلة ، وكانت تجربته التحررية تشكل جزءا من تيار عام يسود العالم بعد الحرب العالمية الثانية . وكان البعث يدرك بأن (عصر الجباهير) قد حان . وأن (الامم الكادحة) تأخذ مكانها في هذا العالم ، وتشق طريقها الخاص ، لأن قضاياها ، لا يمكن أن تندرج ببساطة في هذا الجانب أو ذلك من قضايا العالم المعاصر . لذلك كان مفهوم عدم الانحياز الذي طرح مبكرا في هذه المرحلة ، يحصل في طياته منظورا حضاريا جديدا . وقد عانى هذا الموقف من السياسة الدولية ما يعاينه اليوم موقف الرفض للتسويات الاستسلامية في المنطقة العربية ، من سوء فهم ومن عزلة ، قبل أن تصبح سياسة عدم الانحياز فيما بعد سياسة مقبولة ومفهومة من

القوى الكبرى ومعترفا بها كسياسة معبرة عن قضايا مستقلة ، لها منطقتها الخاص ومنظورها الحضاري المتميز .

(فالتعددية) ، سمة عصرنا الراهن ، كذلك (الخصوصية) ضمن اطار (التصور العام) لمسيرة العالم ككل ، كوتنا طابعا مميزا لفكر البعث ، الذي كان يرفض التضحية بالمشخص من أجل المجرد ، كما كان يؤكد منذ البداية على ضرورة التخلي عن النسق المعلق من التصورات ، وضرورة الانطلاق من وحدة الفكر والممارسة ، وتجاوز صنيعة الجمود المذهبي وعشوائية النزعات الاختبارية . لأن روح العصر ترفض التحجر ، كما ترفض التخبط^(٣) .

ان هذه المنطلقات التي ابعدت فكرة البعث عن (الميتافيزيقا) ، وعن مناهج الفكر التقليدية ، قد زودته بالقدرة على رؤية الواقع العربي وحركة تطوره في المرحلة الراهنة ، بشفافية ساعدته على جعل مسيرته حية وصاعدة مع صعود حركة النهضة العربية المعاصرة . كما زودته بالقدرة على الاكتشاف السريع لمواقع الخلل ومعالجة الظواهر السلبية ، وممارسة النقد الذاتي ، وتحويل النكسات الى دروس وعبر ، وعلى تجاوز نفسه باستمرار ، وعلى مواجهة مؤامرات الامبريالية والصهيونية والرجعية ، بروح التحدي والثقة بطاقات

(٣) أنظر : نفس المصدر . (النظرية الحية الى الحزب) .

الجمهورية العربية ، والايان بالمستقبل والعمل الدائم من أجل توجيه القوى النضالية في الوطن العربي •

وقد ظهرت آثار وتناج هذه النظرة العلمية والثورية الى الواقع العربي ، المستندة الى منظور حضاري شمولي ، في طريقة مواجهة حزب البعث العربي الاشتراكي لنكساته الخاصة ونكسات الامة العربية في مرحلة الستينات •

فقد استطاع البعث أن يتجاوز محنة الانفصال التي فجرّت الوحدة عام ١٩٦١ ، بوصوله الى السلطة في قطرين عربيين هما سوريا والعراق عام ١٩٦٣ وبطرحه مشروع تجديد الوحدة مع مصر (مشروع ميثاق ١٧ نيسان) الذي لم ير النور ، لأن الظاهرة العسكرية البروقراطية القطرية المتسلطة ، وقفت في طريق تحقيق هذه الوحدة وحالت دونها • وقد جاء العدوان الصهيوني على مصر في حزيران ١٩٦٧ ، مكملًا لسلسلة النكسات التي شهدتها مرحلة الستينات • فكانت ثورة ١٧ تموز في العراق بمثابة الجواب النظري والعملية على تلك النكسات •

ايها السيدات والسادة

ان هذه اللمحات الخاطفة من تطور الحياة السياسية العربية

التي لعب فيها البعث دورا طليعيا قياديا ، والذي تكلل بوصوله من جديد الى السلطة ، ليضع خيرته الطويلة ومعاناته العميقة ودروس العقود الثلاثة من السنوات الماضية ، في انضاج تجربة جديدة في العراق ، دخلت عامها العاشر ، وهي توالي الصعود نحو المستقبل محاطة بآمال الجماهير العربية في الوطن العربي ، لأنها قد تبيّنت فيها ملامح تجربة شابة جديدة ناضجة ، تمثل حقيقة الامة والتفاعل النضالي بين مختلف القوى والاتجاهات الوطنية والقومية التقدمية على طريق تكوين جبهة نضالية واحدة في وجه أعداء النهضة العربية •

ان هذه اللمحات الخاطفة ، السريعة ، عن المعاناة التي ولد البعث من خلالها وتطور ونما • لا تأخذ ابعادها الصحيحة الا من خلال الاطار الثقافي والايديولوجي الذي جعل البعث ينظر الى تاريخ الامة العربية كوحدة متماسكة بين الماضي والحاضر والمستقبل والى تاريخ العالم كوحدة قائمة على حوار دائم بين الحضارات ، وجعله ينظر الى نفسه والى رسالته التاريخية ، من خلال مفهوم النهضة العربية المعاصرة • ان هذا المنظور الحضاري فد زود البعث بتجربته في العراق بنظرة شمولية الى الواقع العربي والى العالم ،

وبنظرة حية متطورة الى نفسه والى القوى الاخرى ، وبقدرة على التعامل مع الحاضر من خلال المستقبل . فالقوى الطبيعية الشابة من عمال وفلاحين وطلاب وجنود ونساء ، تشكل مادة أساسية في تكوين بيان البعث . وهي طاقة ثورية متفجرة ومبدعة تشكل الثروة البشرية في الوطن العربي ، واليها كقوة مستقبلية يتوجه البعث من أجل بناء مستقبل يجسد حقيقة النهضة العربية المعاصرة .

ايها الاصدقاء

ان ما حققته تجربة البعث في العراق في السنوات العشر الماضية من ملامح (نظرية عمل) ، تربط باصالة ودينامية بين الايديولوجية والاستراتيجية والتكتيك ، بين الافكار والممارسات ، بين النظري والعملي ، ضمن المنظور الحضاري الذي أشرنا اليه (منظار النهضة العربية) . ان ذلك كله ، هو الذي جعل انجازات الثورة على صعيد العراق تتم ضمن اطار حاجات النهضة العربية ، وضمن اطار الحاجة الى بناء عالم جديد وانسانية جديدة ، يكون للبعث وللامة العربية شرف المساهمة في تكوينها .

فتحقيق الوحدة الوطنية في بلد كالعراق كانت تمزقه الصراعات الداخلية ، والاعتراف بالحقوق القومية والثقافية للاقليات ، وتحقيق الجبهة الوطنية بين الاحزاب والقوى الوطنية التقدمية ، وتأميم النفط ، والتشريعات الاشتراكية العمالية

والفلاحية والخاصة بتحرير المرأة ومساواتها . ومكافحة الامية ضمن اطار حملة وطنية شاملة . والتنمية الاقتصادية والتركيز على الانتاجية ، وعلى الممارسة الديمقراطية ، . . . كلها خطوات وانجازات منبعثة من تصور ومن سلّم قيم لا يعزل حركة التطور في العراق عن النهضة العربية الشاملة ، وعن تصور للانبعث الحضاري القومي ، غير منفصل أيضا عن صورة عالم قائم على الحوار بين الحضارات ، تنضج فيه المعادلات الجديدة للتقدم ، عالم من الامم الحرة المستقلة التي تملك مصيرها بيدها ، وتعيش ضمن أنظمة تقدمية مؤمنة بالحرية .

فالوحدة والحرية والاشتراكية ، لم تفهم في البعث كأهداف عربية معزولة عن آفاق تجارب العالم الثالث ، أو حتى عن آفاق التطور الذي تسيّر نحوه بلدان العالم ، حتى قارة كاوروبا .

فالوحدة ضمن اطار الحرية والاشتراكية حل عربي لحاجات النهضة العربية ، ولكنه ليس حلا عربيا خالصا ، لانه يترجم في الوقت نفسه تصورا حضاريا معبرا عن حاجات مشتركة تتصل بطبيعة العصر ، وبطبيعة المشكلات التي تواجهه .

وعلى ضوء هذا المنظور الحضاري ، نظر البعث الى القوى التي تعمل في خط معاكس ، لتفتت العالم ، وزرع الانقسامات فيه ، وتغذية الاوضاع المصطنعة ، وتشجيع العدوان ، واستغلال

الطبقة العاملة ، والتعدى على حقوق الشعوب والانسان •
وعلى ضوء هذا التصور نظر البعث الى مشكلة اصطدام
النهضة العربية بالصهيونية ومخططاتها ، وبالتحالف الامبريالي
الصهوني الرجعي ، الذي يشكل النقيض المعادي لحركة النهضة ،
ليس على صعيد الامة العربية حسب ، بل على صعيد شعوب قارات
آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية أيضا •

ان الفهم العميق لطبيعة الصراع العربي - الصهيوني وأبعاده
وتأثيره ، ولمشكلات الطاقة وحقوق الانسان ، وغيرها من
المشكلات التي تقلق عالمنا ، يتطلب فهما لطبيعة القوى
والايدولوجيات التي تحركها والمصالح التي تستند اليها • فعصرنا
الذي يتجه نحو حوار بين الحضارات ، يجد نفسه أمام عقبات لا بد
من تذليلها ، تزرعها القوى المعادية لحضارة هذا العصر ، عصر
الجمهورية والاشتراكية والحرية •

ان الامة العربية تتحمل القدر الاعظم من هذا العداء في
نهضتها المعاصرة ، فالمخططات الامبريالية والصهيونية والرجعية
تتجمع وتألف من أجل الحيلولة دون هذه النهضة • ومن هنا ،
كان موقف الرضا للسياسات التي تخدم مصالح الامبريالية في
المنطقة العربية ، والتي تقدم للصهيونية الفرص لتهيئة كيانها
العنصري لمرحلة جديدة من التوسع •

ان هذا الموقف المستند الى فهم عميق لطبيعة الايديولوجية
الصهيونية ومركزاتها الطبقية ، ومنظورها السلبي لتاريخ العالم ••
انما يرفض العدوان على النهضة العربية • وقد كان يبدو حتى قبل
المسرحيات الاخيرة للسادات ، موقفا غير واضح وغير مقنع • وكان
ينظر اليه على أنه موقف غير واقعي وجامد • ولكنه يبدو اليوم ،
وسوف يتضح أكثر غدا ، أنه مفهوم ومعقول ومنطقي • لأن الحوار
بين الحضارات يتطلب التخلي أولا ، عن المفاهيم والاساليب المعادية
لنهضات الشعوب والامم ، التي عانت الاضطهاد والاستعمار
والاستغلال ، والتي تشكل جوهر التجدد الحضاري في عصرنا •

فالرفض للعدوان على النهضات الحضارية الحديثة هو أحد
المداخل الاساسية للحوار الجدي بين الحضارات • ورفض التخلي
عن حق شعب بأكمله في أرضه وفي تقرير مصيره ، هو تمسك بألف
باء الحضارة •

فالامبريالية والصهيونية تحولان منطقتنا العربية ، ومعها
العالم بأسره ، الى غاب يسيطر عليه منطق القوة الغاشمة حيث
تقف التكنولوجيا الحديثة الى جانب قوى التدمير في وجه القوى
الحضارية الناشئة التي تتسلح بالحق وبالجمهورية المؤمنة بقضيتها •

ان الامبريالية والصهيونية ، بالرغم من التقدم التكنولوجي ،
يسلان التخلف الايديولوجي ، والمصالح التي تملئها قوائين

الاستغلال والتسلط والعنصرية . فهما لا تستطيعان أن تفهما حتى شعوبهما . وهما تشكلان عامل توريث دائم للشعب الذي تتحدثان بأسسه . لانهما تضعانه أمام مأزق تاريخي .

ان منظور البعث ، وقوى التحرر العربي بوجه عام ، السى المسألة الفلسطينية ، منظور حضاري ، يستوعب آلام اليهود في الماضي على يد الفاشية ، ولكنه يستوعب في الوقت نفسه آلام العرب في الحاضر على يد الصهيونية .

ان (القومية العربية) كحركة تحرر وانبعث حضاري ، تنطوي على معنى الرسالة التاريخية المرتبطة بالمعنى الانساني الشمولي . لذلك فهي ترفض التعصب بطبيعتها ، وتتنظر الى مستقبل التعايش بين الديانات والقوميات ، التي تعيش في المنطقة العربية ، بالثقة التي يؤكدها تاريخ هذه المنطقة في الماضي ، وتعززها المعاني التحررية والتقدمية للنهضة العربية المعاصرة ، ومنظورها الحضاري الانساني .

ومن خلال هذا المنظور نفسه ، فهم حزب البعث العربي الاشتراكي مسألة الطاقة في العالم ، على أنها ليست مسألة (مستهلكين متطورين ، ومنتجين متخلفين) . بل هي مسألة بناء عالم جديد تتكون من خلاله المعادلات الجديدة عبر حوار حقيقي بين الحضارات . انها مسألة (المنتج الاكبر) ، الذي هو نفسه

(المستهلك الاكبر) الذي يتحكم بمصير العالم ويقف في وجه تفاعله الحضاري .

فاذا كان النزيف في الطاقة يهدد الجميع في المستقبل . واذا كانت زيادة الانتاج تدمر البلدان المنتجة وتخفيض الانتاج يضايق البلاد المستهلكة حاليا ، فان الحسابات الضيقة ليست هي طريقا لحل المشكلات .

ان هذه المسألة وغيرها من العديد من المسائل تحيلنا دوما الى النقطة المركزية التي انطلق منها البعث في منظوره الحضاري هي :

ان في عالمنا الراهن يوجد تفاعل حضاري عفوي بين تجارب العالم الثالث وبين هذه التجارب من جهة والقوى المستتيرة المتحررة التقدمية في العالم ، التي تدرك أن عالمنا المعاصر يفتش عن حضارة جديدة .

وان هذا التفاعل ينبغي أن يجرى تعهده ، وتقدير أهميته ، وحاجته الى التطور باتجاه زيبده وثوقا .

ان فكرة التضامن بين بلدان العالم الثالث من أجل تحرير اقتصادها واستكمال استقلالها السياسي . . . وفكرة التضامن العربي الاوربي التي تستند الى التفاعل الحضاري القديم بين أوروبا والعرب ، الذي كانت محصلته ايجابية ، بالرغم من المظاهر

حول المنظور الحضاري للبعث

محاضرة القيت في كلية الشرطة

في ١٥/٦/١٩٧٨

السلبية التي رافقت بعض مراحلها .. وكذلك فكرة قيام نظام اقتصادي عالمي جديد ، ونظام سياسي دولي جديد معبر عن ارادة الشعوب ، يسمح بتحقيق الطاقات المخزونة فيها .. كل هذه النظرات ، انما تنبع من ادراك لطبيعة التحولات الموضوعية والمسيرة الحضارية لعالمنا الراهن ، التي لا بد أن تؤدي الى تحول في سلم القيم نفسه . لأن مستقبل العالم الحضاري ، انما يتوقف على تفاعل القوى الحضارية الجديدة التي تسلك نظرة ايجابية ليس فيها حقد ، ولا عقد تاريخية ، ولا مصالح ضيقة أنانية . فالتضال الذي تخوضه قوى المستقبل في عالمنا ، انما يقوم على الدفاع عن قضايا مصيرية مرتبطة بالمصير الحضاري للعالم نفسه .

أيها السادات والسادة :

ان الكلام عن المنظور الحضاري للبعث ، يعني الكلام عن أبعاد تجربة تاريخية للامة العربية ، وعن قوة متحققة وفاعلة وصاعدة في الوطن العربي ، تبني نفسها على ضوء فلسفة (الحوار الحضاري) ، التي تشكل في نظر البعث منذ تأسيسه عام ١٩٤٧ (الارضية الحقيقية لبناء انسانية جديدة) .

ايها الرفاق والاخوة

ان المهمة (الحضارية) التي ينهض بها قطاعكم ، في اتصاله المباشر واحتكاكه الدائم بالشعب ، والتي هي مهمة تنظيمية وارشادية وتنويرية وتربوية ، قبل أي شيء آخر ، تشكل في المرحلة التاريخية الراهنة من تطور مجتمعنا رسالة تطوير وتحضير وتحديث ، الى جانب المهمات الاخرى التي تمليها حاجات النضال في مجتمع يشق طريقه كقاعدة للشورة العربية • وهذه (المهمة الحضارية) التي تحظى بكل تقدير من ابناء شعبنا ، ليست الا جزءا من مهمات ثورتكم وهي في الوقت نفسه تجسيد لهوية البعث ورسالته التاريخية الحضارية •

فحزبكم ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، قد تميز ، منذ البدايات الاولى التي مهدت لنشأته وتأسيسه ، بامتلاك (منظور

ايها الرفاق •

ان في ابسط الاعمال والمهمات التي تنهضون بها داخل
قطاعكم الحيوي ، تتجلى ، وبخاصة ، من خلال علاقتكم بجماهير
شعبنا ، ملامح المنظور الحضاري لثورتنا وحزبنا • فأتتم مع ابناء
الشعب تقومون بمهمة عامة مشتركة هي مهمة التحديث والتطوير
والتشهد وتنظيم الحياة على أسس تعكس روح الثورة ومنظورها
وطموحها •• وكلما تعمق الوعي لهذه المهمة الاساسية ، وأصبح
مشتركا على الصعيدين الرسمي والجماهيري ، كلما اقتربنا من
منظور الثورة العربية ومن اهدافها الكبرى فنحن ، بانرغم من كل
الرواسب التي نعاني منها ، ومن المشكلات الموروثة من مرحلة
الانحطاط والضياع القومي والاستعمار والتخلف والاستغلال ،
والتي تجعل مهمة النهضة المعاصرة صعبة وشاقة ، فاننا نستطيع ،
حتى في تفاصيل حياتنا اليومية ، أن نتذكر وقائع من تاريخنا تعيدنا
الى المستوى التاريخي الذي عالج فيه اجدادنا مشكلاتهم وكان
سببا في ظفرهم على التحديات الداخلية والخارجية ، وفي ارتفاعهم
الى مستوى رسالة امتهم •

فالمهم ان يكون هذا التذكر حيا ، أي أن يكون عاملا في
تجديد الصلة بالماضي على اساس معالجة مشكلات الحاضر والتطلع
الى المستقبل بنفس الروح المبدعة والعقل العلمي والثقة الخارقة

حضاري) أي بنظرة شاملة الى الامة والى الانسانية ، وبنظرة علمية
تحليلية للمراحل التاريخية وتحديد واضح للمرحلة الراهنة من
حياة الامة العربية ، والتي هي مرحلة نهضة وانبعاث قومي
حضاري • وكذلك بنظرة ثورية عميقة الى محتوى النهضة العربية
المعاصرة • ففي ثورة الوحدة والحرية والاشتراكية على واقع يجزيء
الوطن ويضطهد الامة ويستغل الجماهير العربية • ومن هنا كان
لا بد أن تتصور الدور الذي يقوم به أي قطاع من القطاعات
الاساسية للحياة وللدولة في المجتمع ، على ضوء هذا المنظور
الحضاري للحزب •

وأتم في هذا القطر المناضل ، قد ورثتم أقدم الحضارات في
التاريخ البشري ، وكنتم أسرع الاقطار العربية الى حمل لواء
الحضارة العربية الاسلامية في الماضي ، فالعروبة والاسلام وجدا في
العراق الاذن المرهفة ، والقلب الملبى لنداء الرسالة •• ، فأتتم
اليوم ، جديرون بأن تنهضوا بالمهمة الحضارية لبعثكم العربي
الاشتراكي في هذه المرحلة الخطيرة والمصيرية من تاريخ الامة العربية
لتعيدوا امتكم الى مكانها كمنارة للعلم والمعرفة والقيم الانسانية
في العالم •

بالنفس التي امتلكتها الاجيال التي نقلت الامة العربية من الجاهلية الى الحضارة .

ان التراث العظيم الذي ورثناه عن الماضي ، لم يكن لغة وشعرا وبطولة وتوحيدا وانتشارا في الارض ودولة ممتدة على ثلاث قارات وحضارة غنية حسب ، بل كانت معطيات هذا التراث وقبل كل شيء ، وعيا للذات ، وطريقة في تحويل المجتمع ورسالة انسانية .

لذلك فان التراث العربي ، بقدر ما هو سند لشعبنا وأمتنا في مرحلتها التاريخية الراهنة ، فانه يشكل تحديا لواقعنا ولاجيالنا في آن معا .

انه يتحدى الواقع لانه يكشف عن حقيقة الامة . وهو يتحدى الاجيال الجديدة ، لانه يكشف عن المستوى الذي ينبغي ان يرتفع اليه نضالها وسلوكها ووعيا ، حتى يكون اتساقها الى التراث شرعيا ، فلا تكون متطفلة وعبثا عليه .

ان العناصر الحية المتجددة في تراثنا القومي ، تشكل اليوم اساس انطلاقنا الاصيل وجزءا من منظورنا الحضاري الانبعاثي ، ومن معاناتنا النضالية في الحاضر ومن نظرنا الى المستقبل .

فالامة العربية ، وهي تواجه اليوم ، كل تحديات العصر ، لا تستطيع ان تجابهها بجزء من شخصيتها ، او ببعد واحد من ابعاد

وجودها ، بل هي بحاجة الى استنفار كل قواها واستخلاص كل تجاربها واستيعاب تجارب الاخرين ايضا . لان الاطار التي تهدد امتنا هي من نوع الاخطار المصيرية الكبرى ، التي تتجمع فيها وتتوحد ، كل ما تعرضت ، وتعرض له الامم الاخرى في العالم الثالث من انواع التحديات والاطار والمؤامرات .

فقد شاء قدر امتنا ان يكون وطنها العربي في موقع مركزي من العالم ، وأن يكون قدر العالم مرتبطا بموقعها الجغرافي ، وثوراتها ، ودورها الحضاري . وأن يكون تحررها ، يعني المساهمة الكبرى في تحرير الانسانية برمتها . لان تناقضات العالم بأجمعه تنعكس على واقعها .

فذيول المرحلة الاستعمارية القديمة ، والمصالح الامبريالية الراهنة ، والمؤامرة الصهيونية ، واحتياطي التجزئة والتخلف والاستغلال والرجعية . . كلها تقف في وجه النهضة العربية المعاصرة ، وتعرض طريق الانبعاث القومي ، وتفرض على امتنا مستوى من المجابهة لا يستطيع ان يحققه الا انسان عربي جديد يحتاج الى اعداد جديد ، واجيال عربية مهيأة لدور قيادي تاريخي ، وجماهير معبأة ومدربة ، منتجة ومبدعة ، تتفجر طاقاتها الثورية على شكل ثورة دائمة . فالثورة العربية هي اليوم وارثة للتفاعل الحضاري بين العالمين القديم والحديث ، وحاملة (للرسالة) ، التي جدت روح الانسانية ، ابان ثورتنا القومية الروحية التي تمثلت بالاسلام

بثورة التوحيد ، التي وحدت فكر الامة وضميرها ، واطلقت
التدورات المبدعة لدى جماهيرها . وهي اذ تصنع اليوم على الارض
العربية انسانياتها الجديدة ، فان الثورة العربية انما تساهم في صنع
عالم جديد ، عالم من الامم الحرة الاشتراكية . (فروح الرسالة) ،
بقيت حية متجددة في امتنا ، وهي التي تشكل اساس (المنظور
الحضاري) للبعث في المرحلة التاريخية الراهنة ، حيث تأتي ظروف
المعركة المصرية للامة ، وظروف الانهيار الحضاري للعالم العربي
الذي بدأت ملامحه منذ مطلع هذا القرن ، لتؤكد جميعها الدور
الحيوي لروح الرسالة في الانبعاث العربي المعاصر ، وفي مشاركة
الامة العربية في انضاج حضارة عالمية جديدة .

ايها الاخوة الرفاق

لم يكن انضاج هذا المنظور الحضاري للبعث عملية سهلة
بسيطة . فقد كان تنويجا لمعاناة فكرية ونضالية طويلة نقلت الامة
العربية من مرحلة الى مرحلة جديدة من النهضة العربية المعاصرة .
فالجيل الاول من المفكرين العرب ومن المناضلين والاجيال الثورية
التي شقت طريق هذه النهضة ، جميعهم اسهموا في انضاج هذا
المنظور الحضاري ، الذي لم يكن منذ البدء شيئا آخر سوى
النظرة العميقة الى الذات ، (ذات الامة) بعد ضياع طويل وغياب
حس الهوية .

فالهجوم الفكرية ، والمعاناة العميقة لطلائع النهضة العربية
المعاصرة كانت تتركز حول الاجابة على السؤال : من نحن ؟ وكيف
نحقق وجودنا ، ودورنا في هذا العالم ، وكيف نعبر عن حقيقتنا
ضمن اطار هذه المرحلة التاريخية ؟ .

وقد بقيت الاجوبة على هذه الاسئلة طيلة نصفي القرنين
التاسع عشر والعشرين ، تتخبط بين المفاهيم الاقليسية والاممية ،
والقومية الطوباوية ، والرجعية ، حتى بدأت ملامح الوعي العلمي
الثوري مع مطلع الاربعينات من هذا القرن ، التي شهدت ولادة
البعث . فقد وجدنا خلال المرحلة التي سبقت نشأة البعث ، انماط
من الايديولوجيات والحركات السياسية والاحزاب ، بعضها يتكلم
عن أمم عربية ، سورية ، وفرنسية ، وفينيقية . . الخ ، وبعضها
يقيم تناقضا مصطنعا بين العروبة والاسلام تحت تأثير نزعة سلفية
متخلفة او تأثير علمانية مغتربة ، وبعضها يعزل القومية عن جماهيرها
وعن نضال الامة ضد الاستعمار ، أي عن الاشتراكية والحرية ،
وبعض الاخر يعزل الاشتراكية عن اطارها القومي وعن النضال
ضد التجزئة . . كل ذلك لان تلك الايديولوجيات والحركات ، لم
تدرك المعنى الحقيقي للنهضة العربية ، وما هي التناقضات الاساسية
في الواقع العربي ، لانها كانت تشكو من نقص اساس وجوهري ،
كامن في افتقارها الى المنظور الحضاري الشمولي والعميق الى

(الذات العربية) والى (الواقع العربي) والى طبيعة المرحلة التاريخية للامة وللعصر . فالبعث جاء تلبية لحاجة سد هذا الفراغ ، وتدشيننا لمستوى جديد في الحياة القومية والنضال القومي المعاصر .

ايها الرفاق

ان (المنظور الحضاري) الذي تميز به حزبنا ، قد كان وراء الاكتشافات الاساسية لفكر البعث .

آ - بفضل ، تحقق لأول مرة في الفكر العربي الحديث الربط الجدلي بين الاصالة والحداثة ، فلم يعد تراثنا القومي ، كما كانت تحده النظرة السلفية الرجعية ضمن اطار نظرة صنيعة ، تبعده عن المعاناة الراهنة للامة وعن آفاق المستقبل ، وتعطل الجانب الوظيفي والمعاناة الايجابية الحية فيه ، ولم تعد حداثتنا وتطورنا وتقدمنا عملية اغتراب وتبعية وتقليد للغرب ، لان المنظور الحضاري للبعث قد اقتد التراث من الصنيعة كما اقتد الحداثة من الهجاءة عندما ارتفع الى مستوى جديد من الوعي لعلاقة الروح المتجددة للرسالة العربية بمرحلة النهضة المعاصرة وكون (الحداثة) انما هي التقاء حي ، وتجديد للصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل العربي .

ان هذه النظرة العلمية الجدلية التاريخية ، التي انضجت التركيب الانبعاثي الجديد : (الاصالة المتجددة) ، (والحداثة المتأصلة) . قد ميزت الايديولوجية العربية الثورية عن الايديولوجيات القومية ، والدينية التقليدية ، والماركسية ، بنظرة علمية ثورية الى التأريخ والى الامة والى الحضارة ، كانت بمثابة الاساس الصلب الذي قامت عليه حركة الثورة العربية المعاصرة .

ب - والى (المنظور الحضاري) للبعث ، يرجع الفضل في انتقال مفهوم الوحدة العربية من المعنى التقليدي كشعار سياسي مستهلك ، الى مفهوم علمي ثوري مستوعب لابعاد تناقض التجزئة القائم في الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي ، العربي ، وفي الذهنية والنفسية التي تشكلت من خلال معطيات التجزئة . فالوحدة تعني الثورة وهي (فكرة ثورية) تقود العمل الوحدوي الذي ينبغي أن يكون ثوريا ، وهي تعني استعادة وحدة الامة ووحدة الوطن ووحدة الهدف ، وليست مجرد تنسيق لواقع التجزئة . فالوحدة السياسية والتوحيد السياسي هما جزء من كل ، هو التوحيد القومي الذي يعني الغاء القطرية والحدود التي رسستها التجزئة السياسية ، وبالتالي فهي صراع مع القوى التي خلقت

التجزئة ومع المصالح التي تلتقي معها وتعمل على ترسيخها ،
قوى الاستعمار والامبريالية والصهيونية والطبقات الرجعية
المستغلة وهي بالاضافة الى مضمونها التحرري الاشتراكي ،
تجسيد لمفهوم الامة الواحدة والشخصية الحضارية وهي
الشرط الاساسي لتحقيق رسالة الامة .

ج - ومن خلال (المنظور الحضاري) للبعث ، تبلور مفهوم جديد
للحرية في الوطن العربي . مفهوم (وحدوي) يربط تناقض
التجزئة بالتناقض الاستعماري الامبريالي الصهيوني ،
ويكشف شكلية الاستقلال القطري وعدم جديته اذا انفصل
عن النضال الوحدوي ، فالمهم والجوهري هو (حرية الامة)
وليس تحويل الاقطار الى كيانات مشوهة . والمهم هو حرية
الجمهير وليس حرية المستغلين . كما أن حرية الافراد لا تأخذ
في مفهوم البعث معناها العميق الا بارتباطها الوثيق والعميق
بحرية الامة . فللحرية اذن محتواها الوحدوي ومضمونها
الاشتراكي وهي التزام برسالة الامة . فهي تعني تحرير
الوطن العربي من الاغتصاب والاحتلال والتخلف والتبعية
وتحرير الانسان العربي والامة العربية من عوامل الانحطاط
واثار المرحلة الاستعمارية ، أي بعث الشخصية العربية من
جديد .

فللحرية معنى حضاري يضاف الى المعاني السياسية
والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ويجمعها ضمن اطار
مفهوم انبعاثي جديد للحرية يأخذ بعين الاعتبار العلاقة الجدلية
بين الفرد والمجتمع . بين الانسان والامة ، بين الانسان
والطبيعة ، بين الانسان وذاته .

فالحرية بالاضافة الى أنها (وعي لقوانين التطور
الاجتماعي والتاريخي والحضاري للامة العربية ضمن اطار
العالم ، ووعي لتناقضات المرحلة العربية الراهنة) ، هي
توظيف لهذا الوعي في شق طريق الانبعاث ، وابداع الوسائل
والادوات والخطط اللازمة للانتصار في معركة الحرية .
فالحرية الوحدوية الاشتراكية مفهوم انبعاثي حقق تجاوزا
للمفهومين ، (الليبرالي) الفردي الاطلاقي المجرد الذي يبيح
الاستغلال . و (الماركسي) المادي الجدلي الذي يركز على
الجانب (الموضوعي) على حساب (الذاتي) وعلى الجانب
(الطبقي والاجتماعي) على حساب الجانب (القومي
والحضاري) ، ويهمل الجوانب الروحية ، ومسألة بناء
الشخصية الانسانية من الداخل .

لذلك فان (المنظور الحضاري) للبعث قد طرح الى
جانب مفهوم التحرر من الاستعمار ومن السيطرة الامبريالية

والاحتلال الصهيوني ، مفهوم التحرر من جميع اشكال
التبعية ، ومسألة استرداد حرية اتخاذ القرار ، واستقلال
الشخصية والثقة بالنفس وبالامة .

كما طرح الى جانب مسألة تملك الجماهير للشورة
القومية مسألة خضوع السلطة لارادة الجماهير واستلام
الجماهير للسلطة ، وارتباط السلطة بمفهوم الرسالة ، رسالة
الامة .

د - وعلى ضوء هذا (المنظور الحضاري) للبعث ، تم انضاج
مفهوم علمي جديد للاشتراكية ، ينفذها من الاحتكار
الماركسي دون أن يعود بها الى الطوباوية . فهي اشتراكية
تحيط بما حصل من تطور وتبدل في اوضاع المجتمعات
البشرية خلال ما يقرب من قرن من وفاة كارل ماركس ومن
تطور في واقع الانظمة السياسية ، وفي طبيعة القوى التي
تحكم العالم ، وفي مفاهيم الزمان والمكان والمادة والمدنية
والحضارة . . وفي واقع الجماهير والطبقات والامم ، وخاصة
في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث الثورات
التكنولوجية والفضائية والذرية والسكانية وفي الاعلام
والثقافة ، تطرح معطيات جديدة لم يعد العقل الفلسفي ،
المثالي والمادي ، على حد سواء بقادر على استيعابها ببساطة ضمن

مقولاته وايدولوجياته القديمة ودون تحليل علمي جديد
يضع موقع النقد والتمحيص كل ما طرحه الفكر الاشتراكي
من قبل ، من أجل الارتفاع الى مستوى جديد من الفهم
الاشتراكي العلمي . فقد خرجت اشتراكية البعث من اطار
النظم الفلسفية الاطلاقية التي تقدم نفسها كخاتمة المطاف ،
وتحتكر الصفة العلية وتطلق الاحكام الكهنوتية على غيرها .
لان اشتراكية البعث التزمت منهجا علميا جدليا تأريخيا في
تحليل بنية المجتمع العربي وتناقضاته الاساسية في المرحلة
التأريخية الراهنة على ضوء صورة العالم السياسية
 والاجتماعية والحضارية الراهنة . ولم تغرق في نزعة فلسفية
مجردة . لذلك استطاعت ان تتخلص من المفاهيم القطرية
الاشتراكية وان تنضج منوها وحدويا للاشتراكية يربطها
بالاطار القومي الطبقي ، كما استطاعت اشتراكية البعث ان
تتجنب الخلل في العلاقة بين الاشتراكية والحرية ، الذي
وقعت فيه النظم الماركسية ، فهي لم تنظر الى الاشتراكية
كمصدر وحيد للحرية ، بل اعتبرت العلاقة بينهما علاقة
جدلية وليست تبعية . لذلك اتبعت منذ البدء الى خطورة
البيروقراطية والتسلط الفوقي على الجماهير بأسم
الاشتراكية . وشجبت منذ البدء النزعات الستالينية التي
تبرر قمع الحرية بأسم الاشتراكية واقامة التناقض فيما بينها .

فمفهوم (الحرية الاشتراكية) كان أساسه مفهوم (الاشتراكية
الانسانية) ، وكلاهما يرتبط بالوحدة العربية وبمفهوم
الانبعاث القومي .

كل ذلك جاء بفضل (المنظور الحضاري) للبعث الذي
استطاع ان يخترق القوالب والمذاهب وجدران الصنمية ، وأن
يملك المنهج العلمي الثوري . لذلك رفض منذ البدء فكرة
(النموذج الواحد) في الاشتراكية ، ورفض الاكتفاء بالبعد
التطري لها ، ولم يتوقف عند العامل الاقتصادي والمادي للاستلاب
الانساني ، بل ربط عوامل الضياع بتناقضات المجتمع العربي فأكد
على العامل القومي وعلى العامل الحضاري ، فالعوامل السياسية
والثقافية والفكرية ، أخذت في فكر البعث الاشتراكي مكانها ضمن
دائرة العملية الجدلية الشاملة للوطن العربي والامة العربية . ولم
يفقل فكر البعث عن الربط العلمي بين ما هو عام في الاشتراكية ،
يعكس قوانين تطور المجتمعات البشرية بوجه عام ، وبين ما هو
خاص بالمجتمع العربي والمرحلة التاريخية الراهنة التي يمر بها .
واستطاع فكر البعث الاشتراكي ان يكتشف السياق الخاص
لتطور الاشتراكية في العالم الثالث بتحليله العميق للظاهرة
الاستعمارية والامبريالية والصهيونية وعلاقتها بالقوى الرجعية
والبنى الطبقية القائمة داخل المجتمع العربي كاحتياطي للردة ،

واستيعاب للعوامل المشتركة في تجارب التحرر في القارات الثلاث ،
ودور الرجعية في العالم الثالث ، كما استطاع في الوقت نفسه ان
يدرك طبيعة الخلل القائم في التجارب الاشتراكية المعاصرة والكامن
وراء الازمات الحادة بين البلدان الاشتراكية . وأن يشق الطريق
العربي الى الاشتراكية عبر فهم عميق لمعطيات الصراع بين الامة
العربية وتناقضاتها الداخلية من جهة وتناقضات العالم الرأسمالي
والاشتراكي من جهة أخرى .

وهكذا فان (المنظور الحضاري) للبعث ، قد كان الميزة
الاساسية التي امتلكها فكر حزبنا ، والتي منحته القدرة على
تجاوز الايديولوجيات المطروحة في الساحة العربية من قبل .
فالمنظور الحضاري هو الذي كان وراء الفهم الاعمق للوحدة
والحرية وللإشتراكية وهو الذي سمح بفهم أعمق للظاهرة
الاستعمارية ، وللظاهرة الصهيونية ، وللظاهرة الامبريالية
والرجعية . وهو الذي ساعد على سبر اعماق لظاهرة التخلف . وكان
وراء الفهم الاعمق ليسار ولسيسار الجديد في العالم . وهو الذي
جعل فكر الحزب يستبق ويتقدم على الايديولوجيات الاخرى ،
واليه يعود الفضل في امتلاك حركة التحرر والثورة في الوطن العربي
لنظرة عميقة الى (الذات) والى (الآخر) ، وتحويل الفكر الى
سلاح في المعركة القومية ، واستعادة الشعور بالرسالة وربط الثورة
العربية بمصير الانسانية وقيمها الحضارية .

مثالية ، كانت قد توقفت عند حدود الرفض السلبي او التبرير العقيم ، ولم تخرج من دائرة الازمة التي تعيشها الحضارات والتجارب المعاصرة .

فقد اعاد البعث مفهوم (الحوار الحضاري) الى مكانه الطبيعي ، بعد أن حدث انقطاع سببته مرحلة الانحطاط ، وعززته الايديولوجيات التي اساءت فهم المرحلة العربية الراهنة .

فالحوار مع الماضي ، الذي كشف للبعث الانقطاع بين الحاضر والتراث . والحوار مع الثقافات ، الذي كشف له المسافة بين واقع الامة وبين حقيقتها ، وبين حاضرها وطموحها المستقبلي . كل ذلك كان ، نتيجة للمعاناة الفكرية والنضالية التي ولد منها المنظار الحضاري الجديد .

فقد كانت محاولات طمس الهوية القومية في المغرب والمشرق ابان الاستعمار الغربي والسيطرة العثمانية ، عاملا في نمو الحس بالهوية عند العرب . ومن هنا كان التأكيد على الذات عملا ايجابيا طالما بقي في حدود تعميق الوعي بالذات وبالآخر .

فالتمسك بالاصالة والخوف من التشكك الكاذب للوعي العربي ، اصبح شيئا مشروعا ومطلوبا ضمن اطار المعركة الدائمة والمؤامرة المتجددة على النهضة العربية . لا بل اصبح واجبا نضاليا وانسانيا وحضاريا . بالاضافة الى كونه عملية رد على المحاولات

ايها الرفاق والاخوة

ان (المنظر الحضاري) نتاج حضاري ، وهو رمز الى حقيقة موضوعية ، وهي أن الامة العربية قد استأنفت مسيرتها بعد انقطاع سبعة قرون . وعندما يقول القائد المؤسس (١) : (اننا لسنا الا نتاج امتنا) ، فهذا يعني ان ما امتلكه البعث من منظور حضاري ، انما يعبر عن انتماء حضاري ، وعن وعي لهذا الانتماء ، استوعب من خلاله صورة المرحلة العربية الراهنة وصورة العالم ومعنى الرسالة الحضارية للامة في تجربة نهضتها المعاصرة . كل ذلك ليس الا تعبيرا عن وعي الامة العربية لذاتها ، وثورتها على واقعها وتطلعها الى دور انساني شمولي في المستقبل .

فالحس التاريخي في الامة قد أيقظ حسها النضالي وجعل نهضتها تأخذ شكل ثورة على نفسها وعلى واقع الانسانية الحاضر . فهي ثورة أصيلة تضرب جذورها في الحياة العربية والانسانية . فهي شاملة وعميقة تنهل من مصدر الرسالة وتتطلع الى آفاق تقدمية تحررية حضارية ، منسجمة مع روح الامة وروح العصر . لذلك تميزت نظرة البعث الى (التراث) والى (الدين) والى (الحضارة المعاصرة) ، بحس نقدي ايجابي ، استطاع ان يطرح حلولا ايجابية ، وأن يتقدم على النظرات الفلسفية ، مادية أم

(١) ميشيل عفلق : في سبيل البعث ط ٧ . ص ٤٠ .

وأن يتجنب الانزلاق الى احد الموقعين : (الرجعي) الذي يفهم الدين فهما سطحيا شكليا ، ويحوله الى عادات آلية وممارسات فاقدة للمحتوى الروحي والجوهر ، ومعادية لروح الثورة في الامة . و (الماركسي) الذي يعمم الموقف من الرجعية على الموقف من الدين وينظر اليه من منظار فلسفي الحادي .

فالعلاقة بين العروبة والرسالة قد كانت في اساس المنظور الحضاري للبعث للربط بين ثورة الامة في الماضي وفي الحاضر ، ولتخليص الدين من ايدي الرجعية ووضعه في طريق الثورة . فالرسالة العربية روح متجددة وفاعلة وهي اللحمة التي تربط ما بين الثورة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المرحلة الراهنة من حياة العرب .

ان هذا المنظور الحضاري للبعث ، قد استطاع بدوره ان يدرك المعنى العميق للتطور التاريخي ولمفهوم التاريخ . فتطور المجتمعات البشرية لم يكن بصورة مطلقة ودائمة مجرد (مسيرة بيولوجية) تحتل فيها معادلة (العمل - الاستهلاك) أعلى مراتب الفعالية البشرية . و (التاريخ) ليس مجرد عملية (تمثل حيوي) للطبيعة . بل ان ابعاد الحياة الانسانية تؤكد ان التاريخ هو عملية صنع الانسان ، والشعوب ، والامم ، لمصيرها وحضارتها وشخصيتها الانسانية . فهو كفاح تأخذ فيه (الحرية) مكانها

الرجعية التي تقتل الاصاله ، وعلى التقديمية السطحية الطائشة التي تريفها ، وطرح لمستوى جديد في فهم التراث وعلاقته بالمعاصرة ، مستوى المفهوم الانبعاثي العلمي الحضاري .

فالتراث (حياة وثورة وحضارة) عرفها العرب في الماضي ، وهو البعد التاريخي الذي يشكل جزءا مكونا لشخصيتنا الفردية والاجتماعية فالعودة اليه تعني تجديد الصلة بما هو حي منه ، وبما هو فاعل وايجابي ومؤثر في نهضتنا ، وما هو منسجم مع حركة المجتمع وانطلاقة الامة نحو المستقبل . (فالتقدمية هي سبيل اتصالننا بماضينا) كما يؤكد تراث البعث ومنظوره الحضاري .

و (الدين) كجوهر ، أي كرسالة توحيد وسمو ومحبة ، وكثورة على الصنعية في الفكر ، والانحطاط في الروح ، والفساد في المجتمع ، قد كان موضوع اعتبار وتقدير واحترام في منظور البعث الذي اعتبر عاطفة التدين لدى الجماهير العربية جزءا من عملية المحافظة على الاصاله والانشداد الى التراث ، دون ان يغفل عن محاربة الرجعية التي تستغل هذه العاطفة من اجل اهداف متعارضة مع مصلحة هذه الجماهير ومع حاجات تحريرها وتطورها وسعادتها ومع نزوع الامة الى الثورة والنهضة والتجديد والتقدم ومتابعة المسيرة الانسانية الحضارية .

فقد استطاع المنظور الحضاري للبعث ان يحقق هذا التمييز

الاساسي ، وهو صراع يمثل فيه (الفكر) جنباً الى جنب مع
(العمل) ومع الانتاج والاستهلاك والنزعة الى السمو ، مكانه
كعنصر فاعل ومبدع . فهو سلسلة (من النضال القومي والصراع
الطبقي وثورات الحرية) متداخلة الحلقات ، تشكل عملية جدلية
تأريخية واحدة .

فخلاص الانسان وسعادته ، وتحرير المجتمعات وتوحيد
الامم ، ليس منوطاً بالاقتصاد وحده ، بل عن طريق سلسلة من
المراحل يتداخل فيها تطور الاقتصاد والنمو الاقتصادي مع
تطور العلم والفكر والنضال من أجل التحرر والحرية ومن اجل
تحقيق الذات الفردية والاجتماعية . وأخيراً ، فان هذا المنظور
الحضاري للبعث ، هو الذي جعل هذه التجربة الثورية التي
تحققونها في هذا القطر المعجون بالحضارة والثورة على مر التاريخ ،
تجربة ذات بريق ثوري جديد على صعيدي الفكر والتطور ، وفي
جميع حقول المعرفة والانتاج والابداع ان هذا (المنظور الحضاري)
يشكل سندا وقوة لنا ، ودليلاً يعصم فكرنا من الوقوع في
الانحراف عن خط التطور التأريخي الموضوعي لامتنا . . . بيد انه
يشكل في الوقت نفسه ، كما أشرنا في البدء ، تحدياً دائماً لنا ،
افراداً وجماعات ، طليعة وجماهير ، لكي نرتفع باستمرار الى
مستوى العمل التأريخي الذي تتطلبه الامة العربية من اجيال
نهضتها المعاصرة .

الثقافة والشخصية العربية

* تحديد معنى الثقافة :

تشير كلمة (ثقافة) ، الى حقيقة من طراز معقد ، ذات ابعاد وآفاق واسعة ، ومكونات وعناصر متعددة ، ومدلولات واتجاهات متنوعة لذلك يصعب أن تختزل ، وأن تندرج ضمن اطار تعريف مبسط ، ونهائي .

وهي مترادف احيانا وتتداخل مع مصطلحات أخرى ، كالحضارة ، والمدنية ، والايديولوجية ، والرسالة .

لذلك فان تحديد (معنى الثقافة) يصطدم بصعوبات ويتعرض لاختفاء منهجية ، لا بد من الاحتراز والتنبيه لها منذ البدء : اخطاء الفكر المجرد والنظرات الجزئية والانتقائية ، وعزل الثقافة عن اطارها الحي المتمثل بحياة الامة . اي بوجودها وشخصيتها وواقعها ، وبالسياق التاريخي الذي تمر به .

في اللسان العربي ، يتصل تاريخ الفعل (ثقف) بلغة العرب في الجاهلية . ويشكل القرآن الكريم مصدر معنى (الثقافة) : (١) وهو (الظفر بالشيء ، بعد البحث والتفتيش عنه) ، كما جاء في الآية الكريمة : (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) .

كما أن القواميس العربية ، القديمة والحديثة ، تنطوي على تحديدات متقاربة لمعنى الثقافة : (٢) (سرعة الفهم ، اي الذكاء والمهارة والدقة ، والسعي لتحصيل المعرفة وتهذيب الفكر وبقائه ، وتقويم الاعوجاج ، والبحث والتقصي) . بيد أن ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦) مؤسس (علم العمران) هو الذي أعطى للثقافة معاني (عمرانية) مرتبطة بالعوامل المكونة للحياة الاجتماعية (٣) . فتقدم (العلوم والصنائع) محصلة وجزء من كل .

(١) انظر (التفسير الفريد) لمحمد عبدالمنعم الجمال ، ج ١ . ص ١٧٩ القاهرة ١٩٥٢ .

(٢) انظر : (لسان العرب) المجلد العاشر : (يقال ثقف الشيء - وهو سرعة التعلم) . و (المصباح المنير) - ثقفت الحديث - فهمته بسرعة) . وثقفته اقامت المعوج منه و (ابن دريد) : ثقفت الشيء حذقته و (اساس البلاغة) بمعنى طلب العلوم والمعارف . و (المحيط للفيروزبادي) ثقف ثقافة : صار حاذقا خفيفا فطنا .

(٣) مقدمة ابن خلدون ، طبع مكتبة المثنى - بغداد - ص ٤٣٤ و ٥٤٥ .

والثقافة تتحدد على ضوء (البنية الاجتماعية) و (اعمار الدولة) .

اما (فكرة الثقافة) الحديثة ، فقد جاءتنا من اوربا كثمرة من ثمار عصر النهضة (٤) حيث أدى ازدهار الفكر والادب والفن ، منذ القرن السادس عشر ، الى استعارة الكلمة اللاتينية (Culture) من الزراعة والعناية بالارض ، الى التعبير عن الواقع الاجتماعي وعطاء الفكر .

وعندئذ نشأ (مفهوم الثقافة) ، الذي تطور ونما مع نشوء وتقدم ، علوم الانسان (الاثريولوجيا) والاقوام (الانتولوجيا) والنفس (السيكولوجيا) والاجتماع (السوسولوجيا) . فأصبح أكثر تحديدا .

وخلال النصف الاخير من القرن الثامن عشر استحدث اصطلاح الحضارة (CIVILISATION) ، فكان اول كتاب استخدمه ، يعود الى عام ١٧٦٦ ، وأول قاموس احتواه قد نشر عام ١٧٩٨ (٥) .

(٤) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) . دار الفكر - بيروت .

(٥) ساطع الحصري (اراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة)

دار الطباعة الجديدة - بيروت . ١٩٥٠ . ص ٤٨ .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بدأ اصطلاح (الايديولوجية) بالانتشار (٦) فأصبح لابد من تحديد أدق لمعنى الثقافة حتى لا يلبس مفهومها مع المعاني المحسدة للمصطلحات الأخرى .

فإذا كانت الحضارة تعني (٧) مجموعة الظواهر المعبرة عن أنشطة البشر في مجتمع أو عدة مجتمعات ، مع الطوائف الغالبة التي تكسبها أصالتها) . أي (٨) العطاء الكلي لانجاز المجتمع المعنوي والمادي) وإذا كانت (المدنية) هي (التعبير المادي عن الانجاز الحضاري) وكانت الايديولوجية تعني (٩) منظومة من الافكار والتصورات الاجتماعية تهدف الى غاية عملية ، وتصلح قاعدة لعمل جماعي ، تتجه الى فهم حركة التطور والتأثير فيها عن طريق التنظيمات السياسية التي تحمل لواءها) .

(٦) تطور الايديولوجية العربية الثورية . للمؤلف ص ١١ بيروت المؤسسة العربية - ١٩٧٥ .

(٧) P.H.C.H. de Lauwe - La culture et le pouvoir. p. 90 stocke. Paris. 1975

(٨) د . ياسين خليل (المفهوم الحضاري للتراث العربي) مجلة آفاق عربية - بغداد - العدد ١٩٧٦/٨ .

(٩) تطور الايديولوجية العربية الثورية - للمؤلف - ص ٨ - ٩ .

فان (الثقافة) بمفهومها الحديث تعني (١٠) ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقدات والفن والاخلاق والقانون والعرف ، وكل القدرات والعادات التي حصل عليها الانسان كعضو في المجتمع) .

كما تعني (١١) (التنظيم لانماط السلوك والافكار والمشاعر التي تعتمد على استخدام الرموز) .

وبتحديد أشمل وأدق ، كما جاء في تعريف ريتشارد ماكيون (R. MeKeon) حيث يقول (١٢) :

« يمكن تعريف الثقافات بكونها انماطا ناشئة عن تطور تأريخي . ومن ناحية أخرى ، كمجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة ، كما يمكن متابعة آثارها في كل

(١٠) تعريف (E.B. Taylor) في كتاب (الثقافة البدائية) عن كتاب (الثقافة والتربية) للدكتور حسن الفقي - الاسكندرية . ١٩٧٠ .

(١١) تعريف لسلي وايت (L. WHITE) من كتاب (الثقافة والتربية في العصور القديمة) . للدكتور وهبه سمعان ، دار المعارف القاهرة . ١٩٦١ .

(١٢) L'originalité des cultures. Unesco. 1953. p. 11.

(كتاب اصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي ، لمجموعة من الكتاب العالميين باشراف اليونيسكو) .

دوائر النشاط الانساني كالسياسة والحقوق والفن والدين
والمعرفة العقلية باختلاف صورها » .

وعلى ضوء هذا التعريف يتبين أن الثقافة تعبر عن صور
الحياة المميزة للجماعة . وأنها من الامة كالثمرة من الشجرة .
وأن (الحضارة) تشكل (المعنى الاثريولوجي) أو المدلول
الاجتماعي للثقافة كما ان (الايديولوجية) هي مظهر من مظاهر
الثقافة يعبر عن التوتر القائم بين التصورات والممارسات . فداخل
اطار الثقافة يوجد نوعان نقيضان من الايديولوجية : (التقليدية
والتجديدية) ، كما توجد أيضا الثقافة اللامتتيسة والثقافة
الارستقراطية والثقافة الديمقراطية والثقافة القومية والثقافة
الاشتراكية ..

وداخل اطار مفهوم (المثقف) ، يمكن أن نميز بين النموذج
(التقليدي) الذي يعمل في قطاع الثقافة وكأنه مستقل عن الحياة
الاجتماعية وبين (المثقف العضوي) الذي يربط بين مضمون
عمله الثقافي وبين حركة المجتمع وصورته التاريخية^(١٣) ، اي
بين الثقافة والشخصية القومية . ان البيان الثقافي لا يمكن ان
يستقل عن البيان القومي لان الثقافة بعد من ابعاد الحياة بوجه
عام ، ومن ابعاد (الحياة القومية) بوجه خاص .

Gramsci dans le texte. Ed. Sociales. p. 579

Paris. 1975.

(١٣)

٥٨

* عناصر الثقافة واتجاهاتها :

اذا كانت الثقافة ، كما رأينا ، كلا مركبا . فما هي العناصر
الداخلة في تركيب هذا الكل ؟ ثم ما هي الاتجاهات التي تميز
الثقافة كتيار حي ، اي ككل مركب متحرك متطور - نام شأن
الظواهر الحية كلها ؟

ان علماء الاجتماع يتحدثون عن (انماط ثقافية) وعن
(دينامية الثقافة) . كذلك فان (الانماط الثقافية) ، التي تحقق
الانتظام في الفكر وفي السلوك ، تتألف هي ذاتها ، من (السمات
الثقافية) التي تعتبر (ابسط عناصر الثقافة وأصغر جزء يمكن أن
تقسم اليه الثقافة بغية تحليلها)^(١٤) ، كذلك فان الكلام عن
(عمليات النمو الثقافي) ، يعني الكلام عن انماط التحولات
(المرتبطة بالتفاعل ، و (التعارض ، والتبادل) بين تلك السمات .
فالثقافة ليست مجرد (انتاج) ، بل هي ايضا خلق وحركة وابداع
واتسار . ان تحليل (الدينامية الثقافية) يشكل مركزا من مراكز
اهتمام الباحثين المعاصرين ، كتحليل الروابط والعلاقات بين ثلاثة
انماط : (نمط التحولات المادية ونمط التحولات في البنى
والعلاقات الاجتماعية - ونمط التحولات النفسية -
الاجتماعية) .

(١٤) د . وهيب سمعان . الثقافة والتربية في العصور القديمة .

وعلى هذا الاساس نستطيع أن نميز اولاً بين ما هو عام وما هو خاص في الثقافة^(١٥) . (فعموميات الثقافة) ترتبط بالعادات والتقاليد والافكار واللغة وانماط السلوك المشتركة . وهي عامة بين ابناء الثقافة الواحدة .

اما (خصوصيات الثقافة) ، فهي التي تتعلق باعضاء الجماعات المهنية والطبقات الاجتماعية والجنس (ثقافة الفرد والفئة والطبقة اي ما نسميه التخصص الثقافي) الثقافة الفلسفية والتقنية والصناعية والعمالية ...

ومن (العموميات والخصوصيات) ، تتشكل ما يسميه (لتون) : (نواة الثقافة) . اما العناصر (المحيطة) فهي ما يطلق عليه اسم (العناصر البديلة) وهي التي تشكل العوامل المساعدة في تطوير الثقافة ونموها كالفكر الجديدة والموجات الجديدة من الازواق والتطورات (كتعليم المرأة وتشغيلها ...)

ويلاحظ (ريتشارد ماكيون) أن (ائتلاف الخاص والعام في الثقافة يمثل في تاريخ كل الامم التي كان لها حضارة رائعة واتصالات كثيرة بالعالم الخارجي) .

ثم ان تحليل التركيب الثقافي يمكن أن يكشف عن تراكم

(١٥) رالف لتون R. Linton (دراسة الانسان) ترجمة الناشر . بيروت ١٩٦٤ .

جزئية تستمد عناصرها من شتى الميادين الطبيعية والسيكولوجية والاجتماعية والقيمية ، ومن مختلف البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ...

وقد ميز (جون هونيكمان) ثلاثة محتويات رئيسية للثقافة^(١٦) :

آ - (المحتوى التكنولوجي) المرتبط بالوسائل التي يستغل بها الانسان العالم المادي .

ب - (المحتوى الاجتماعي) الخاص بالنظام الاجتماعي والانشطة والمؤسسات .

ج - (المحتوى الايديولوجي) المتعلق بالتقدم المعرفي للثقافة وبالمعتقدات والقيم .

كما أن هناك مجالاً للتمييز بين (العناصر الشعورية والعناصر اللاشعورية) في التركيب الثقافي حيث تبرز أهمية (التراث) وكذلك أهمية الرموز والقيم والطوابع الثقافية . فالمتفرج الاوروبي يفكر برواية عطيل بحساسية جمالية في حين أن العربي يتناولها بحساسية خلقية^(١٧) .

(١٦) في كتاب (عالم الانسان) نيويورك (١٩٥٩) . عن كتاب د حسن الفقي (الثقافة والتربية) .

(١٧) مالك بن بني (مشكلة الثقافة) . مصدر سابق .

فالثقافة هي الى حد كبير (تاريخ الجهود الحيوي من اجل
التكيف المتوارث اللامنقطع الذي نحياء كأفراد واجيال
وطبقات) (١٨) و (الاشعور الجمعي) يلعب دورا هاما في بلورة
العنصر الثقافي الثابت عبر تطور الامم .

فأدوار الثقافة الهندية المختلفة (العصر الفيدي والابنشاد
وعصر المصلحين المحدثين) استلهمت جميعها روحا تراثية واحدة
تتمثل في (فكرة الشسول والتسامح والوحدة المتعالية) ، كما
يشير الى ذلك (ب . ل . اتريا) في بحث عن الثقافة الهندية (١٩) .
في حين اننا نلاحظ العنصر الجمالي هو الذي اجتذب
اليابانيين الى البوذية . أي ما يتجلى في بوذا من (هدوء
وكمال) (٢٠) .

ومهما يكن من أمر تعدد عناصر الثقافة وتنوع اتجاهاتها ،
فاننا نستطيع ان تبين بسهولة ان تقدم المجتمع نحو التعقيد
والتمايز في البنى ، يصاحبه ظهور مستويات ثقافية متعددة ، وغنى
في العناصر وتنوع في الاتجاهات ضمن اطار الوحدة العميقة

P. Ricœur. Philosophie de la volonté. p. 82 (١٨)
Paris. 1948.

(١٩) اصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي ، اليونسكو .
ص ١٣٥ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ٩١ .

٦٢

في التكوين الثقافي العام ، أي (التكوين القومي للثقافة) . فالثقافة
هي اكثر من مجموع عناصرها . فنحن نستطيع ان نتكلم عن
(نماذج ثقافية) هي ، كما يقول (ماكيون) (٢١) (منظومات اقوال
وافعال - تتعلق بصور السلوك والتفكير التقليدية المألوفة) .
وهي التي جعلت الاغريقين يتميزون بالديموقراطية وبالثقافة
الفلسفية ، والرومان كمشرعين ، والعرب اصحاب رسالة وافتتاح
على الثقافات وكذلك جعلت (اللغة العربية اللغة الوحيدة في العالم
مع الاغريقية والصينية ، التي احتفظت بتراكيبها الاساسية منذ
العهد القبلي حتى القرن العشرين) (٢٢) .

* الثقافة والشخصية :

في كتاب « ملاحظات نحو تعريف الثقافة » ، يقول الشاعر
اليوت (T.S. Elliot) (٢٣)

« انك لا تستطيع ان تبني شجرة ، وانما تستطيع ان تزرعها
وتتعهدا وتنتظرها حتى تنضج . . . وعندما تكبر لا تستطيع ان
تشكو اذا وجدت ان بذرة البلوط قد انبتت شجرة بلوط » .

- (٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٠ .
(٢٢) الفكر العربي في معركة النهضة ، للدكتور انور عبد الملك . دار
الاداب - بيروت ١٩٧٤ ص ٢١ .
(٢٣) ترجمة د . شكري عياد . القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد
القومي ص ١٤٢ .

وهكذا ايضا في البناء السياسي والاجتماعي والايديولوجي ، نجد ، كما هو الحال في (البيان الثقافي) ، أن (بعض هذا البناء تشييد ، وبعضه نمو . بعضه آلة واكتساب ، وبعضه نام مع ثقافة الامة وشخصيتها وهو بهذا الاعتبار مختلف عن البناء الثقافي للامم الاخرى) (٢٤) .

ان العلاقة بين الثقافة والشخصية ، تؤكد حقيقة اساسية ، وهي أن التداخل العميق بينهما يصل الى درجة تبدو معها كما لو انهما مترادفتان . سواء على الصعيد الفردي (شخصية الفرد) أو الاجتماعي (شخصية الامة) .

فمنذ استخدمت كلمة (ثقافة) لأول مرة ، كان مدلولها يشير الى عملية (تنمية الافكار داخل الشخصية الانسانية) بعد أن كانت تدل على (تنمية المزروعات داخل الارض) . ففي حين أن (الصفة التي تميز الحضارة هي قابليتها للانتقال والانتشار بين الامم ، فان الثقافة تختص بكل امة) (٢٥) .

وكذلك كلمة (شخصية) ، فان الاتجاهات في تعريفها وتحديد معانيها منذ استخدمها (شيشرون) لأول مرة في القرن الاول قبل الميلاد ، انما تنطوي على مفهوم الثقافة ايضا . لان

(٢٤) نفس المصدر ، ص ١٤٢ .

(٢٥) ساطع الحصري (اراء واحاديث في العلم والاخلاق والثقافة) بيروت ١٩٥٠ ص ٤٨ .

الثقافة داخلية في المعاني الاربعة التي استخدمها (شيشرون) (٢٦) وهي التآم صفات الشخصية والدور الذي يلعبه الشخص في الحياة ، والطريقة التي يبدو فيها الشخص للاخرين ، والحقائق المميزة) . وكذلك ايضا في المفاهيم الحديثة للشخصية (٢٧) .

(التنظيم المتكامل لجميع الحقائق المعرفية والعاطفية والنزوعية والجسمية) . و (توافق الفرد مع بيئته) ، و (العنصر الثابت في السلوك) ، و (الهرم الذي يتكون من (الذات المادية) و (الذات الاجتماعية) و (الذات الروحية) و (الانا الخالصة)) . . . الى آخر هذه التعريفات . حتى ان بعض علماء الاتنولوجيا (علم الانسان) أكدوا تأثر الفرد بالثقافة وتشكل الشخصية الى حد ذهبوا معه الى اغفال الفروق الفردية تماما (٢٨) .

فكما اننا نتكلم عن (ثقافة قومية) ، كذلك يمكن أن نتحدث عن (شخصية ثقافية) . فعلماء الاقوام وعلماء الانسان ، استطاعوا أن يتبنوا في اكثر المجتمعات بداءة ، بعدا ثقافيا للشخصية

(٢٦) (سيكولوجية الفروق الفردية) د . يوسف الشيخ ود . جابر جابر عن كتاب (Allport. - Personality) دار النهضة العربية ١٩٦٤ ص ٣٣٦ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه .

الاجتماعية ، وهذا البعد الثقافي يزداد اتساعا وعمقا كلما كان التراث القومي غنيا الى درجة يصبح معها من الطبيعي والمشروع أن تتكلم ، في حالة كحالة الامة العربية وغيرها من الامم التي كانت لها مساهمات حضارية كبرى في الماضي ، كالصين والهند والافريق ... عن (شخصية حضارية) . فالاممة التي كانت جاهليتها (بطولة وشعرا) . وكان (اسلامها) ثورة حضارية وروحية واجتماعية ورسالة الى العالم ، وكان انتشارها في المكان تخليدا لذلك الزمان الذي شهد انفتاح النفس العربية على الصبوة والحلم والابداع ، وانفتاح العقل العربي على آفاق المعرفة وارتياحه لكل مجاهلها واغنائها لتراثها . ان هذه الامة التي استطاعت حتى بعد هبوط الحياة العربية وهيمنة الظواهر السلبية ، من تجزئة واستعمار وتخلف . . أن تحصن شخصيتها الثقافية وأن ترد محاولات طمسها وتشويهها ، وأن تلوذ بالقرآن كحافظ للسانها ومعبر عن عبقريتها وعن اصالتها ، وأن تنهض من مرحلة الانحطاط ، وان تشق طريق انبعائها الحضاري بأصالة فكرية وانسجام رائع مع روح تراثها ومع طبيعة العصر . . .

ان امتنا العربية تمثل بهذا كله ، النموذج الحي لوحدة الثقافة والشخصية . فهما في حالتها مترادفات .

وقد جاء ادراك العلاقة بين الثقافة والشخصية من خلال فهم

العلاقة بين هذين المفهومين المتكاملين : (الثقافة القومية) و (الشخصية الثقافية) فملاحظة (٢٩) (اختلاف الثقافات باختلاف الانماط المكونة لها) وأن النمط الثقافي القومي اليوناني يختلف عن الروماني ، والعربي عن الفارسي ، والهولندي عن الامريكي ، والانجليزي عن الالمانى والفرنسي والروسي (. . .) ، وان هناك (وحدة وتماسكا بين الانماط الفردية المكونة للنمط القومي) . كل ذلك قد جاء نتيجة لتطور الاهتمام بالفروق بين القوميات منذ (موتسكيو) في كتاب (روح القوانين) والمؤرخ الفرنسي الشهير (توكفيل) ، ثم البحوث العلمية المنهجية والتجريبية المعاصرة .

فعلماء الانثروبولوجيا الاجتماعية يسعون ، عن طريق ملاحظة الفروق في اللغات والمعارف والمنطق والسلوك والقيم والسلطة ، الى فهم (المكونات الثقافية للشخصية القومية) (٣٠) .

ثم ان التعريف الاجرائي والنقدي للثقافة (٣١) (Opérationnelle et critique) يهتم بتحليل (علاقة التنوع والتعدد الثقافي بالوحدة التي يتجه اليها) ، ويميز بين

(٢٩) د . وهيب سمعان . (الثقافة والتربية في العصور القديمة) القاهرة ١٩٦١ .

(٣٠) السيد ياسين (الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلي والمفهوم العربي) القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٨ .

(٣١) Ceconi - O. Croissance économique et sous développement culturel. PUDF 1975. p. 148.

(ثقافة الانسان المخلوق في (عالم صغير ثيوقراطي ومحدود) ،
عالم القرون الوسطى ، وبين ثقافة القرن العشرين (ثقافة انسان
مهندس في عالم غير محدود) حيث القدرة النظرية للعلم والقدرة
المتنامية للتقنية . ويقرر اخيرا ان (التبادل يعزز العامل الموحد
للثقافة) وأن هناك (جدلا ايجابيا بين العناصر الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية واللغوية والفلسفية والسيكولوجية
والتربوية للثقافة) ، وأن العلاقة السببية بين الديناميات الثلاث :
(التقنية - الاقتصادية) و (الاجتماعية - الاقتصادية) و
(الاجتماعية - الثقافية) تأخذ شكل (تحرك وتحويل كلي) .
وقد ساعدت الحرب العالمية الثانية على تعزيز الاهتمام بدراسة
(سمات الشخصية القومية) لدى القوات المتحاربة ، كحاجة من
حاجات كسب الحرب . ومن أجل اكتشاف (نمط الشخصية
اليابانية) عمد الاثربولوجيون الامريكان الى دراسة (الكتب
المدرسية والمجلات الشعبية والكتب السياسية وكتب التأريخ
والادب والافلام السينمائية اليابانية ، وطبقوا الاختبارات النفسية
على الاسرى والمهاجرين اليابانيين ، واجروا مقابلات معهم ،
ودرسوا سيرهم الذاتية . . .) (٣٢) .

ويمكن أن تبين على ضوء نتائج هذه الدراسات أن المفاهيم

(٣٢) السيد ياسين ، نفس المصدر .

الثلاثة الاساسية للشخصية القومية (٣٣) : (مفهوم البناء الاساسي
للشخصية ومفهوم الطابع الاجتماعي ، ومفهوم الشخصية المنوالية
أو النمطية) ، تؤكد هذه العلاقة الجدلية بين (الثقافة والشخصية) .
فالمفهوم الاول (البناء الاساسي للشخصية) ، يقوم على
تقرير (تشابه الناس الذين ينتمون الى ثقافة معينة) . وعلى ظاهرة
(انتقال الثقافات من جيل الى آخر) .

والمفهوم الثاني (الطابع الاجتماعي) ، يقوم على تأكيد
الدور البارز الذي تلعبه (الافكار الدينية والسياسية والفلسفية)
في التفاعل بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية
الذي يؤدي الى نشأة الطابع الاجتماعي للشخصية .

كما ان المفهوم الثالث (الشخصية النمطية) الناجمة عن
(اكبر قدر من التكرار بين مختلف انماط الشخصية) . فسواء
ما يتعلق بالجانب السكوني من الشخصية أو الجانب الدينامي
المتحرك (النضالية والافكار الثورية) أو ما يتعلق بالعمومية
والخصوصية (القومي والقطري) أو بالانماط الفرعية للشخصية
القومية (كالشخصية البدوية والريفية والحضرية) أو (بالبعد

(٣٣) نفس المصدر .

(٣٤) (ادوار هاليت كار) . (ما هو التاريخ ؟) ترجمة عقل وكيالي .
المؤسسة العربية - بيروت - ١٩٧٦ ص ٢٨ .

الاجتماعي والنمط السائد للانتاج في الوطن العربي) ، وبالابعاد التاريخية والنضالية والحضارية للشخصية نلمس في هذا كله الطبيعة الجدلية للعلاقة بين الشخصية والثقافة . واذا كان المفهوم القديم للشخصية القومية المبنية على الفروق البيولوجية ، قد سقته منذ زمن بعيد ، كما يقول (ادواركار) (٣٤) .

بيد أن (من الصعب انكار الفروق في الشخصية القومية الناتجة عن خلفيات ثقافية مختلفة) .

فالثقافة تشكل الجانب الاهم المميز من الشخصية . وهي (مسؤولة عن الجزء الاكبر من محتوى الشخصية وعن طريقة تنظيم محتوى الشخصية) (٣٥) . والعلاقة بينهما ذات طابع دينامي ، فالفرد (يبدأ بتبني معايير الثقافة ثم يتصرف في مرحلة ثائية تصرفا معاكسا ، ثم يعدل فيها . . . وهكذا تصبح جزءا من عملية تطوير الشخصية) .

والعالمة الاثروبولوجية الامريكية (BENEDICT)

تربط بين نمط الشخصية وبين محاور الثقافة (اي بالاتجاهات والمعتقدات الرئيسة السائدة في الثقافة . وتعتبر أن (الشخصية تتكون نتيجة لتفاعلها مع هذه الاتجاهات وتمثلها للقيم ولاساليب

(٣٥) د . حسن الفقي (الثقافة والتربية) مصدر سابق .

السلوك الثقافية المختلفة) (٣٦) .

ولاشك بأن علم نفس الطفل يكشف لنا عن هذا الجانب التكويني من شخصية الطفل التي تتسم مراحلها بهذا التفاعل المتصاعد مع (اللغة والافكار والرموز وانماط السلوك الثقافية) (٣٧) .

وكذلك علم الاجتماع الذي يتصدى لظاهرة انتقال الثقافة عبر الاجيال وتكوينها لما نطلق عليه اسم (اللاشعور الجمعي) و (الوجدان الاجتماعي) ، وكونها كتيار متجدد ومتصل ، تشكل حلقات موازية للمراحل التي يمر بها التطور الاجتماعي . فهي ، (روح الحضارة) كما ان الحضارة هي (روح المدنية) ، وكما ان الرسالة هي (روح الثقافة) .

فاذا كانت (عموميات الثقافة المكتسبة في مرحلة الطفولة - في مرحلتي التمثل والتكيف الثقافي - تدخل في تكوين شخصية كل فرد) ، كما يقول (رالف لنتون) (R. Linton) ، فإن دراسة رايزمان D. Riesman في كتاب (The Lowely Crowd) ، للنتائج النفسية والاجتماعية للتحول من المجتمع الصناعي الى المجتمع الاداري ، قد جعلته يقرر بأن (شخصية الراشد تتشكل

Ruth Bénédiet (Pattans of culture) p. 42. (٣٦)

(٣٧) راجع كتب العالم السويسري (جان بياجه) حول (نشأة الذكاء عند الطفل) و (سيكولوجية الذكاء) .

بأنماط التنبؤ الاجتماعي) التي تعكس بدورها (اتجاهات الثقافة) (٣٨) .

وعلى هذا الأساس ، كان التأكيد على أن (الثقافة للامة كالشخصية للفرد) وان (للامة شخصيتها الثقافية كما للفرد شخصيته التي يتميز بها) (٣٩) ، وان (الثقافة تعبير عن حياة حقيقية تتفاعل مع الشخص وتؤثر فيه) (٤٠) ، كما انها (تعبير عن روح الامة ومرتبطة بحياتها وبعيادها واقعا) ، وانها (حافظ عام في شخصية الفرد) ، وبالتالي فان كلا منهما شرط لوجود الاخرى ولنموها ولاصالتها . وعلى ضوء ذلك كله نستطيع أن نتبين مدى التشويه الذي يلحق بالثقافة عندما ينقطع نسغ الحياة الذي يربطها بشخصية الامة . فتصبح مجردة (٤١) . ثم الوهن الذي يصيب الشخصية القومية عندما تضمر الثقافة .

وليس من مثال يفصح المؤامرة المزدوجة على الثقافة وعلى الشخصية القومية ، من عملية طمس الهوية القومية والقضاء على اللغة العربية التي تعرضت لها الامة العربية في مشرق الوطن

(٣٨) د . حسن الفقي (الثقافة والتربية) مصدر سابق .

(٣٩) د . علي الوردي . دراسة في طبيعة المجتمع العراقي . بغداد ١٩٦٥ ص ٣٦ .

(٤٠) ميشيل عفلق - في سبيل البعث ط ١٢ ص ٣٥ - ١٣٨ .

(٤١) نفس المصدر (التفكير المجرد) . ص ١٣٥ .

العربي ومغربه ابان السيطرة العثمانية والاحتلال العربي ، وما تزال تتعرض لها على ايدي الاحتلال الصهيوني في فلسطين .

(ان عملية اجتثاث اصول الثقافة وفصل الشعوب المستعمرة عن تراثها القومي ، هو نهج استعماري لتفكيك الشخصية القومية) (٤٢) .

وهذا النهج الاستعماري قد فشل في الجيولة دون يقظة الامم ودون تحررها ونضالها من أجل استعادة وحدتها . ولكنه ترك آثارا وبقايا تتجلى في ازمة الثقافة المجردة والثقافة المسلوقة الروح ، الضعيفة الصلة بتراث الامة غير المعبرة عن شخصيتها ، المتعالية على جماهيرها ، التي تمثل مصالح جزئية ونظرات ضيقة لا تتسع بشمولها ولا تذهب بعمقها الى درجة التفاعل مع القضية القومية ومع حركة التحرر والنهضة في عالم القارات الثلاث التي تعرضت وما تزال بعض اجزائها تتعرض للسيطرة والتحكم الاجنبي وللاستغلال بمختلف اشكاله المرتبطة بطبيعة النظم الاستعمارية .

لذلك كان من الطبيعي ان يقترن تحرر الامة من الظاهرة

(٤٢) محمد عزيز الحبابي (من المنقلب الى المنفتح) ترجمة برادة القاهرة ١٩٧١ من كتاب

(Bosquet. A. Antologie de la poésie américaine. Paris 1956)

الاستعمارية بتوجه مباشر نحو تحرير الثقافة من عمليات الاغتراب والتشويه الثقافي ، ونحو تحقيق التوازن الحي بين الصلة بالتراث والصلة بروح العصر . حتى ترتبط الثقافة^(٤٣) (بالحركة المبدعة داخل مختلف ميادين الحياة الاجتماعية) المتجهة نحو التطور والنمو والتعويض عن عهود القهر والتخلف التي فرضتها الإرادة الأجنبية . فالثقافة اذن تشكل عنصرا هاما من عناصر بعث الشخصية القومية لا بل انها هي (الصناعة الثقيلة الحقنة في المجتمع ، لانها صناعة الصناعات ، بل هي صناعة صانع الصناعة : الانسان) . وهي (قوة كامنة في حركة تطور الامة وفعل خلاق فيها)^(٤٤) .

اذن (لكل امة ثقافتها . والثقافة في الامة تتصل بمقوماتها الاساسية . أي بشخصيتها)^(٤٥) ، واذا كانت المرحلة الاستعمارية قد حملت معها نوعا من (العنصرية الثقافية) تجاهلت معها كل حضارة غير (الحضارة الاوربية) . فأن انقضاء هذه المرحلة ، قد كان عاملا في بروز ظاهرة الاهتمام بالثقافات القديمة ، وفي تجديد النظرة الى (التراث الثقافي) الذي (ينبغي المحافظة

P. H. ch. de Lawwe - la culture et le pouvoir. (٤٢)

op. cit. p. 90.

(٤٤) محمود امين العالم . (الثقافة والثورة) ، دار الاداب . ١٩٧٠ ص ١٦٣ - ١٦٧ .

(٣٥) انور الجندي (معالم الفكر العربي المعاصر) ، ص ١٤٨ .

عليه ، كعامل وكدافع جديد للابداع) على حد تعبير (دولوف) في كتابه الذي سبقت الاشارة اليه (الثقافة والسلطة) . فهو يقول^(٤٦) :

(ان في بعض البلاد المتخلفة اقتصاديا ، توجد ثقافات مهددة بالفناء تستأثر باهتمامنا ، ليس بسبب غنى الثروات الثقافية التي أنتجتها ، بل بما تملكه من القدرة على المساهمة في انشاء عالم جديد) .

فلم يعد في ظل السياق التاريخي الجديد لبلدان العالم الثالث مجال لنظرية (الثقافة للثقافة) لان (الثقافة لا يمكن ان تكون الا للامة) أي لتحررها ولوحدتها ولتقدمها ولانبعاثها الحضاري .

والاطار الثقافي في مثل أوضاع هذه الامم التي ابتعدت عن تراثها والتي فرضت عليها التجزئة والتخلف ، بقدر ما هو عامل ضاغط لاختصار الزمن فهو ايضا يحمي الشخصية من الضياع ، انه يعني الوجدان الاجتماعي ويربط الافراد والجماعات برباط تأريخي وثقافي يجعل منهم شخصية موحدة متجانسة ملتزمة^(٤٧) . والثقافة تكون في ظل مراحل النهضة القومية

P. H. ch. de lowwe - la culture et le pouvoir. (٤٦)

op. cit., p. 10.

G. Rigaud - la culture pour vivre. Gallimard. (٤٧)

p. 83. Paris, 1975.

واداءه تغيير ، وموقف حي من المشكلات الكبرى التي تطرحها التحديات المصيرية على الشخصية الفردية والقومية . وان (احدى الاشكال الخاصة للنضال الثقافي تكمن في التفتيش عن الهوية القومية)^(٥٠) ولا شك في أن (الثقافة هي دوما الضامن للديمومة الروحية عبر الاجيال والى حد بعيد وسبب الاضطرابات والانتقاعات في التاريخ)^(٥١) كما أن الثقافة الى جانب العوامل الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية ، تشكل العامل الحاسم في تطور المجتمعات ونهضة الامم .

✽ الثقافة العربية :

اذا اردنا تحديد الثقافة القومية لشعب ما ، جاز لنا أن نقول : (انها الاساليب التي يعبر بها عن شخصيته . والطرق الخاصة التي يتسم بها تصرفه ازاء الظواهر الانسانية والروحية والطبيعية)^(٥٢) فما هي (الثقافة العربية) التي تعكس طريقة الامة العربية في التعبير عن ذاتها . والتي هي حاضرة ومعاشه في

H. de varine. la culture des autres. seuil. paris. (٥٠). 1975. p. 238.

A. Reszler. le marxisme devant la culture Paris. (٥١) 1975. p. 143.

(٥٢) م . ع . الحجابي (من المنفلق الى المنفتح) . ترجمة . م . براءه القاهرة ١٩٧١ ص ١٣٧ .

مزوجة الى حد بعيد بالحياة . فهي ليست مجرد تعبير عن الشخصية ، بل هي في الوقت نفسه بعث لهذه الشخصية وتربية للجماهير . وكما أن (الوحدة القومية للشعب الاغريقي اعتمدت على الثقافة الاغريقية وكذلك وحدة الشعب البولوني خلال القرنين الماضيين)^(٤٨) . كذلك فان القرآن لعب دورا حاسما في الحفاظ على الشخصية العربية بالرغم من كل تحديات مرحلة الانحطاط منذ زوال الدولة العربية حتى بدء النهضة الحديثة . وكان درعا للامة العربية في مواجهة الاستعمار والحملات الصليبية .

ويمكننا أن نلاحظ حتى على صعيد الدول المتقدمة والمجتمعات التي استكملت وحدتها القومية منذ زمن طويل ، كيف أن الثقافة تصبح في الظروف العصبية وفي مراحل التحول (كما حدث اثناء الحرب العالمية الثانية وفي المرحلة التي تلتها مباشرة) ، أشبه بالنبض المعبر عن حركة القلب . لان الثقافة تصبح أرقى درجة من درجات المعاناة للمأساة القومية والتحمس يتناقضات العصر وبأزمة الحضارة .

(الثقافة اذن ليست مطلقا)^(٤٩) ، بل هي ساحة نضال ،

(٤٨) نفس المصدر .

(٤٩) نفس المصدر .

مختلف جوانب حياتنا القومية : في العمل والفراغ ، داخل الاسرة وخارجها وفي طريقة استخدام الزمن ، وفي تكوين التصورات والتطلعات ، وفي الانتاج والنضال ونظام القيم ... والتي تأخذ شكل محصلة ومحرك في آن معا ، للتغيرات الأساسية في التطور الاجتماعي ؟

ان الجواب على هذا السؤال لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار (واقع) الثقافة العربية اليوم في علاقتها بالبعد التاريخي لهذه الثقافة ، اي بالماضي . وكذلك ايضا بأفاق المستقبل .

فالثقافة العربية اليوم ، هي امتداد للثقافة العربية الاسلامية في الماضي ، وهي مخاض لثورة ثقافية تنسجم مع متطلبات مرحلة النهضة القومية التي تجتازها الامة العربية .

ان الثقافة العربية هي عنوان لشخصية الامة العربية . وهي منها كالشجرة من الارض . ولا يمكن أن نتكلم عن (ثقافة عربية) دون أن نأخذ بعين الاعتبار (الامة العربية) عبر مراحل تطورها ، وموقف هذه الامة من ذاتها ومن العالم عبر تاريخها العريق الطويل . ودون أن نربط (ديمومة الامة) بصيرورتها . اي بجدل العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل .

فالثقافة في الوطن العربي في المرحلة الراهنة (٥٣) تتصل

(٥٣) مالك بن نبي (مشكلة الثقافة) . دار الفكر - بيروت ١٩٧١ ط ٢ .

بخلق واقع اجتماعي معين لم يوجد بعد) . ذلك أن التبعر والتشتت الثقافي الذي نلاحظه في الواقع العربي اليوم ، انما هو صورة مرحلة تاريخية قيد الانقضاء والزوال من حياة الامة العربية . و (الثقافة العربية) بالمعنى الدقيق ، هي دليل عمل يضيء امام الاجيال العربية طريق النهضة القومية ، طريق الوحدة العربية ، طريق الحرية ، طريق التطور اي طريق تحقيق الذات القومية وخلق المجتمع العربي الجديد .

لا بد اذن أن نميز بين الثقافة العربية كنتاج اجتماعي ومحصلة للتطور القومي من جهة . وبينها كعنصر فاعل واساس في التحول الاجتماعي وفي الحركة المبدعة داخل مختلف جوانب وميادين الحياة القومية .

وبهذا الاعتبار ، فاننا نستطيع أن نتكلم عن (بيان) للثقافة العربية يشكل (التراث القومي) العنصر الاساس الثابت فيه . الى جانب الكلام عن (الدينامية الثقافية) . اي عن التبدل في العلاقة بين الانسان العربي وبين الطبيعة من حوله والعلاقة بين الامة العربية واقطارها ، الذي يلعب فيه العامل (الايديولوجي) دورا هاما .

وعلى ضوء ذلك يتضح أنه لا بد أن ننظر الى الثقافة العربية من خلال كونها (ارثا حضاريا) من جهة ، وكونها تمهيدا

بناء حضاري جديد للانسان العربي وللأمة العربية من جهة

أخرى •

وان التوتر بين طرفي المعادلة هو علة ما نطلق عليه في المرحلة
الراهنة صفة (الازمة الثقافية) التي تأخذ شكل صراع بين قطبي
الزمان : الماضي والمستقبل ، بين الخوف على الماضي كتراث ،
والخوف من المستقبل كأطلالة على المجهول ، بين المحافظة
والتجديد ، بين مصالح التجزئة والتطلع الى الوحدة ، بين الدافع
القطري والدافع القومي ، بين مصلحة الفئة ومصصلحة العسدد
الاكبر من ابناء الأمة ، بين الانغلاق والتعصب وبين الانفتاح
والتفاعل مع العالم ، بين الانفتاح الاصيل والضياع في الاخر •••
يبد أن (ازمة النمو) هذه ، انما تعكس طبيعة مرحلة من
مراحل التطور التي اصطلح المفكرون العرب على تسميتها
بمرحلة النهضة العربية •

ومن خلال المعاناة الفكرية والنضالية ومعارك الصراع
الايدولوجي ومعركة المصير القومي ، تتبلور اليوم الثقافة العربية
المعبرة عن هذه المرحلة التاريخية •

* الثقافة العربية والتراث القومي :

اذا نظرنا الى حياة العرب في الجاهلية ، نلاحظ ثمة ظاهرة
بارزة ، الا وهي الثروة اللغوية التي تميز بها اللسان العربي ،
والشعر الذي بلغ عصره الذهبي مع (المعلقات العشر) •

٨٠

ان اللغة العربية في تلك المرحلة ، كانت تملك ثروة من

الكلمات أغنى واوسع من حدود الحاجة العملية • والذي يتناول
بالدراسة التركيب اللغوي والاصول الحدسية والاشتقاقات
المنطقية للكلمات والمعاني ، في لغة الجاهلية ، يدرك حقا بأن الأمة
العربية قد عبرت عن عبقريتها في لسانها خلال هذه المرحلة (٥٤)
لذلك تجلت الثقافة العربية الجاهلية في (جملة الرموز التي تدل
على معان انسانية • اي كل ما ينبثق عن النفس ثم يعود فيشترك
في انمائها ويكشف عن آفاق انسانية متسامية) (٥٥) • ومن العتب
أن نكتفي بقانون التكيف لتعليل هذه الظاهرة التي تميز الحياة
العربية في الجاهلية • لان هذا القانون بما ينطوي عليه من عمليتي
التمثل assimilation والتطابق accommodation انما يكتفي
بتفسير الجانب الحيوي من الوجود ومن الثقافة • في حين اننا
نلاحظ بالنسبة الى الجاهلية ، أن ظاهرة الثقافة كما تجلت في
اللسان العربي تنطوي على عطاء حضاري يتجاوز (الحياة) الى
(معنى الحياة) والى (الرسالة) • وعلى هذا الاساس ، نستطيع
ان نتهم لماذا جعل الشعر حياة العرب جديرة بأن تحيا ، بالرغم من
كل قسوتها وجدبها ، وبالرغم من (عزلة المكان ووحشة الزمان)

(٥٤) انظر (زكي الاسوزي) المؤلفات الكاملة - المجلد الاول دمشق
١٩٧٣ •

(٥٥) نفس المصدر • المجلد الثاني (رسالة المدنية والثقافة) •

التي كان يعيش الانسان العربي ضمن اطارها في الجاهلية . حيث لم تكن في حياته سوى (نقطة مضيئة واحدة هي اللحظة الحاضرة كمرح نشاطه وبطولته) (٥٦) .

كما نستطيع ان ندرك ايضا لماذا كانت العربية (اداة توحيد لثقافات عدة شعوب وأمم) (٥٧) فيما بعد .

واخيرا ، نستطيع أن نعي ذلك المستوى المعجز من الابداع والبلاغة والفن في لغة القرآن ، وتلك الاصاله التي تبلغ حد الروعة في التعبير عن عبقرية الامة وعن شخصيتها في المرحلة الجديدة ، التي انتقل فيها الانسان العربي من (الجاهلية) الى (الرسالة) وحقق من خلال الثورة الروحية المتمثلة بالاسلام شخصيته كاملة واعطى لثقافته العربية معنى الحضارة الانسانية .

في هذه المرحلة الجديدة ، اصبح (العالم كله ، لا بل الكون وكل ما هو منظور وغير منظور ، مسرحا لنشاط الانسان العربي ولتطبيق القيم الجديدة التي ظهرت في الحياة العربية) (٥٨) . وهكذا اُنضاف الى التراث العربي ، اللغوي والفني في الجاهلية عنصر جديد ، تمثل بالقيم الجديدة التي اكدت عليها الايديولوجية الثورية التي نقلت مجتمع الجاهلية من اطار التجزئة القبليّة

(٥٦) ميشيل عفلق (في سبيل البعث) ص ١٠١ .

(٥٧) انور عبدالمك ، الفكر العربي في معركة النهضة . ص ٢٢ .

(٥٨) نفس المصدر .

والخضوع لنفوذ القوى المحيطة بالجزيرة العربية والانقسام الطبقي الحاد ، الى مجتمع توحيده عقيدة التوحيد ، وتحرره ارادة التغيير ، وتتجاوز انقساماته روح العدالة . فالاسلام تجربة عميقة خلقت العرب خلقا جديدا ، وفتحت عقولهم على مجاهيل العالم فرادوا ميادينها المختلفة وحققوا مساهمات اصيلة في تطوير الفلسفة والعلوم والفن والتشريع وال عمران والحضارة . كما فتحت نفوسهم على قيم الحياة الروحية وعلى الشعور بالرسالة والارتفاع الى مستوى تحقيقها .

وهكذا فان الثقافة العربية الاسلامية اصبح لها شخصيتها المحددة المتكاملة ، الممتدة في الماضي الى ابعد من حدود ما ورثته من الجاهلية من لغة وشعر وما اتسمت به الشخصية العربية من قيم البطولة ، لان هذه الثقافة هي بدورها (وريثة الثقافات القديمة المصرية والفينيقية والآشورية والبابلية) . وقد تميزت (عن الثقافات الغربية والشرقية) آنذاك ، بكونها قد (تجاوزت المراحل السابقة لتطور الفكر البشري التي اتسمت بالسحر وبالتركيز على العالم الاخر) . فالثقافة العربية الاسلامية (مشبعة بتأثيرات العلوم والصناعة) . وقد تمثلت هذه الثقافة (في تجربة شملت دورة كاملة من التاريخ) (٥٩) . وقد كان لهذه الثقافة

(٥٩) انور الجندي (معالم الفكر العربي المعاصر) . القاهرة ص ١٥٠ .

قطب رئيس ومحور هام هو القرآن الكريم . لان في كتاب
العرب المقدس كان التعبير عن الشخصية العربية عميقا ومحيطا
بكل ابعادها بل ومتجاوزا لحدودها الطبيعية المباشرة ومستوعبا
نزوعها الانساني .

لذلك لعب القرآن في حياة العرب دورا يتجاوز حدود الايديولوجية
الثورية ابان الدعوة ، وحدود (الرسالة) ابان الانتشار والبناء
الحضاري . لانه استطاع في عهود الانحسار القومي والانحطاط
الاجتماعي والمرحلة الاستعمارية ، أن يشكل درعا واقيا للامة
العربية يحفظ شخصيتها وعبقريتها اللغوية من الضياع ، ويحافظ
على روحها المتوثبة حتى في احلك صفحات التاريخ العربي ،
واكثرها تعبيرا عن الضعف والتشتت .

فالقرآن هو الذي حسم جاهلية الجاهلية واميتها بالاعلان
عن الزامية التعليم ، اي بجعل طلب العلم فريضة على الانسان
العربي ، رجلا كان ام امرأة .

وهو الذي رسم للحياة العربية صيغتها الجدلية المتوازنة
في التعامل مع الواقع الموضوعي ومع النفس ، ومع الارض
والسواء ، مع الرغبة ومع الصبوة .

والاسلام ايضا ، هو الذي بذر في السنوات الاول من

البعثة كل ما اثمرته الفنون والحضارة فيما بعد ، فكانت فلسفات
الكندي والفارابي وابن سينا وابن الطفيل وابن رشد .

وكان كلام المتكلمين (كالغزالي) وفقه الفقهاء (كأبي
حنيفة والشافعي وأنس بن مالك وابن حنبل والاوزاعي . .)
وتصوف المتصوفة (كأبن الفارض والحلاج والماوردي وابن
عربي . . .) واجتهادات الفرق (الاشعرية والمعتزلة) وعلم
العلماء (ابن الهيثم والخوارزمي . . .) وشعر الشعراء (البحتري
وابو تمام . .) وتاريخ المؤرخين (ابن حوقل ، والطبري . . .)
ونقد النقاد (ابن قتيبة . .) وموسوعات (الجاحظ وابن النديم . .)
والجغرافيين ومهندسي البناء وشبكات الري وغيرها من العلوم
التطبيقية كالطب .

وحتى في عهود الانحطاط السياسي بعد سقوط بغداد عام
١٢٥٨ وتراجع الحياة العربية تدريجيا عن التأثير في مجرى
التاريخ ، بقيت شعلة الثقافة العربية على شكل ومضات معزولة
عن محيطها الهابط العاجز عن التفاعل معها .

فالمجتمع العربي الذي (كان في عصر الفارابي يخلق الافكار ،
وفي عهد ابن رشد كان يبلغها الى اوربا ، لم يعد في عهد ابن
خلدون (القرن الرابع عشر) قادرا على الخلق والتبليغ) (٦٠) .

(٦٠) مالك بن بني (مشكلة الثقافة) . مصدر سابق .

لذلك (كان المتنبي شاعر القوة ، رد فعل لعصر الضعف ،
عصر التفكك والانهار . وكانت ثورته يائسة الى ابعد حدود
الياس لانه كان يشعر بأنه وحيد ، لا يجد مجموعا حيا ينتسب
اليه) (٦١) وهكذا فان تراث ابن خلدون والمتنبي وغيرهما من
الذين عاشوا في عصور انهيار الدولة العربية ، لم يكن يمثل
الوسط الاجتماعي . وفي هذه الحال تفقد الافكار معناها الثقافي .
اي قدرتها على ابداع (الاشياء) .

كما أن الاشياء نفسها تفقد ايضا مقدرتها على انتاج الافكار .
لذلك لم يساهم تراث ابن خلدون الذي ظهر في تلك المرحلة في
تقدم الوطن العربي عقليا او اجتماعيا . لان الصلة الثقافية هي
التي تسخ الافكار والاشياء قيمتها الذاتية والموضوعية في اطار
معين كما (ان كل شيء يفقد معناه خارج اطاره الثقافي) (٦٢) وعلى
هذا الاساس ، فان النظرة الى (التراث العربي) كعنصر اساس
من عناصر الثقافة العربية ، يمكن أن تأخذ في مفهوم (النهضة
العربية المعاصرة) معنى مختلفا تماما عن المعاني التي توجي بها
النظرات المختلفة المستمدة من واقع التجزئة والتخلف والمرحلة
الاستعمارية . أو تلك التي اكتفت باحتذاء الغرب وتقليد انماط

(٦١) ميشيل علق (في سبيل البعث) ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٦٢) مالك بن نبي - مصدر سابق .

التفكير والحياة فيه . كما يصعب علينا أن نتكلم عن (ثقافة
عربية) اليوم خارج اطار مفهوم النهضة العربية . لاننا عندئذ نكون
امام ظواهر الاغتراب الثقافي والتشويه التي هي حصيلة المرحلة
السابقة لمرحلة النهضة . فاذا كانوا يعرفون الثقافة في الغرب
بأنها (فلسفة الانسان) . وفي البلاد الاشتراكية ، يعرفونها بأنها
(فلسفة المجتمع) (٦٣) ، فإن الثقافة العربية في الوطن العربي ،
انما هي (فلسفة النهضة العربية) . ومن هنا كانت النظرة العربية
المعاصرة الى التراث لا بد أن تختلف اختلافا اساسيا عن نوعين
تقليديين متعارضين سابقين هما : (الموقف الجامد) و (الموقف
المتحلل) من التراث القومي .

لان الاول يأخذ شكل تكرار آلي للماضي . اما الموقف
الثاني فهو يهجر التراث كما لو أنه عبء .

فكان لا بد لمفهوم الثقافة العربية في عصر النهضة أن ينطلق
من قراءة جديدة للماضي على ضوء حاجات المرحلة التاريخية
الراهنة ومن خلال عقلية العصر . وأن يتمسك بالتراث لانه تذكير
دائم ، وصلة وصل مستمرة بين الثقافة والامة . وعلى هذا
الاساس فان العودة الى التراث تأتي من خلال مفهوم النهضة
اي انها تكون بمثابة اكتشاف جديد للذات القومية واكتشاف

(٦٣) نفس المصدر .

للطريق العربي للنهضة وللصنيع الفكرية الجديدة الملائمة لحاجات هذه النهضة .

فالتراث حسب هذا المفهوم الجديد (هو ما استقر في وعينا وفي علاقاتنا الاجتماعية واسلوب حياتنا وقيم هذه الحياة ، مما يشكل دافعا محركا وضابطا معولا وحوافز ، نحو تجديد الحياة في الامة) (٦٤) .

فالثقافة العربية المعاصرة تنطوي على التراث انطواء الزهرة على البرعم فهو جزء أصيل منها . بيد أنه (جزء) . وقد يكون في قول الجاحظ (كم ترك الاول للآخر) انسجام مع النظرية العربية الحديثة أكثر من قول عبدالله بن المقفع : (ما ترك الاول للآخر) . لأنه يفتح الابواب امام المستقبل فلا يغلقتها ، ويجعل التفاعل بين التراث والمعاصرة حيا يعزز الوحدة والنمو المستمرين في الشخصية القومية الحضارية .

فالمهم أن يوظف هذا الماضي في خدمة اهداف النهضة العربية المعاصرة . فكل ما فيه من جوانب ايجابية نعتز بها ، ومن جوانب سلبية تعظ بدروسها ، يشكل مادة لنضال العرب الفكري والعملي من أجل تحقيق وحدتهم القومية واستعادة اصالتهم وعظائمهم الحضاري الانساني التقدمي .

(٦٤) انظر مقالة (محاوَر رئيسة في التراث) للمؤلف - صحيفة الثورة بغداد - العدد ٢٤٢٢ في ١١-٧-١٩٧٦ .

فالثقافة العربية اليوم هي امتداد حي لتراثنا العريق ، وهي اغناء مستمر له وليست عبئا عليه ، كما انها لا تنفصل عنه . وهي جهد مستمر لتحقيق هذا التراث ولاحياء ولاستيعاب الثقافات المعاصرة ، ضمن اطار الموقف الاصيل الذي عبر عنه (المهاتما غاندي) عند ما قال (٦٥) :

« انني اسمح لنوافذ بيتي أن تكون مشرعة على جميع رياح العالم . ولكنني لا أسمح لهذه الرياح أن تزحزح بيتي من مكانه » .

* الثقافة العربية المعاصرة :

يقول الشاعر المشهور (اليوت) ، في كتابه (ملاحظات حول الثقافة) (٦٦) :

(لا يمكن أن توجد ثقافة (اوروبية) اذا انزلت اقطارها المختلفة بعضها عن بعض) .

فاذا كان ذلك يصح على الثقافة في اوربا ، فان ذلك يأخذ طابع البداهة بالنسبة الى الوطن العربي .

(٦٥) انظر كتاب المهاتما غاندي (حياتي) .

(٦٦) T.S. Elliot, Notes Towards a Definition of culture.

op. cit. p. 143.

وإذا كانت (الثقافة الاوربية) هي حصيلة للماضي بالدرجة الاولى ، فان (الثقافة العربية) بقدر ما هي امتداد للماضي ، فانها ايضا اضاءة للحاضر ، وكذلك هي اطلالة على المستقبل . لان (الثقافة الاوربية) تعني اقطارا مستقلة ، مستكملة السيادة ، متقدمة ، وتنتمي الى شعوب وأمم مختلفة تجمعها الرابطة الجغرافية والرابطة الحضارية . اما (الثقافة العربية) فتعني اقطار أمة واحدة ، هي الامة العربية ، حلت فيها التجزئة فمزقت جسدها الممتد على الوطن العربي ، وتكونت فيها المصالح الاقليمية كمصالح مناهضة للوحدة العربية الى حد بعيد ، نتيجة احتلال اجنبي ومخطط استعماري وصهيوني مغالب لارادتها ومتناقض مع شخصيتها ومع اتجاه حياتها ورسالتها .

وعلى هذا الاساس ، فان (الثقافة العربية) ، التي تدفع الاقطار العربية في اتجاه احياء التراث القومي والاعتماد على الجذور القديمة للحضارة العربية ، من أجل بناء ثقافة عربية معاصرة وفي هذه الحالة يكون من الطبيعي ، بل ومن الضروري ، أن يكون الاهتمام بالتراث الثقافي القديم للاقطار العربية ، جزءا رئيسيا من عملية الانضاج الجديدة للثقافة العربية المعاصرة ، وخاصة في الاقطار العربية التي شهدت مهد الحضارات القديمة ، والاولى في التاريخ .

بيد أن من الطبيعي والضروري ايضا ، أن تكون الثقافة العربية المعاصرة شيئا اكثر من محصلة للثقافات المحلية القطرية ، والا فانها في هذه الحال تفقد لحياتها الاساسية وتقف عند عتبة (تسيق التجزئة) . وعندئذ لا تعود (ثقافة قومية) ، بل (ثقافات) ، هي محصلة لتناقضات الواقع العربي الراهن ، المتمثلة بالتجزئة والتخلف ، وآثار المرحلة الاستعمارية القديمة والاحتلال الصهيوني وغيرها من العوامل المعاكسة لخط النهضة العربية . بدل أن تكون ثقافة عربية تعبر عن حركة الحياة العربية باتجاه الوحدة ، وباتجاه التطور المتسارع ، والحرية ، والتقدم ، أي باتجاه الانسجام مع قوانين حركة المجتمع العربي في المرحلة التاريخية الراهنة . فقد اقترن النضال من اجل الاستقلال السياسي والاقتصادي في الوطن العربي ، بالنضال من أجل الاستقلال الثقافي .

وكان الاستقلال الثقافي يعني العودة الى (الاصل) الذي بنيت عليه الثقافة العربية في الماضي القومي ، والذي ينبغي ان تقوم عليه الثقافة العربية المعاصرة . وهذا الاصل يتمثل بشخصية الامة العربية ، كما تتجلى في تراثها وفي نضالها اليوم من اجل أن تحقق ذاتها أي وحدتها وحريتها وحضارتها .

لذلك فان الثقافة العربية المعاصرة ، تنطوي اليوم على عملية صراع وتفاعل جدلي بين الدوافع التاريخية لهذه الثقافة ، وبين

محاولات سلب هذه الثقافة ، التي هي قيد التكوين ، أصالتها وروحها المتجددة المتفاعلة مع العصر ، وبين رواسب المراحل السابقة في طور انحطاط الحياة العربية . ليخرج من هذا الصراع ومن هذا التفاعل الجدلي مفهوم حي لهذه الثقافة منسجم مع الشخصية العربية .

فمفهوم (الوحدة الثقافية) في الوطن العربي ، يشير الى حاجات وضرورات استيعاب الخصوصيات الايجابية للتراث القومي والقطري جنباً الى جنب مع استيعاب التيارات الثقافية العامة التي تعبر عن روح العصر . كما ان هذا المفهوم للوحدة الثقافية ، يعني أن تكون هناك (نظرة وحدوية) تنطلق منها الثقافة ، لتعالج على ضوءها المشكلات الثقافية في الاقطار العربية ، على اساس ان هذه الاقطار تنتمي الى هوية ثقافية واحدة .

وكذلك ان تكون فكرة الوحدة الثقافية مستوعبة لاطراف المعادلة الثقافية : العمومية والخصوصية ، التراث والمعاصرة ، التجانس والتنوع . . . دون ان يكون طرف منها او غيرها من الدوائر المتشابكة للعملية الثقافية ، على حساب بعضها الآخر .

فالثقافة العربية المعاصرة هي جزء من حركة النهضة العربية الحديثة ، لا بد أن تنمو معها وأن تتطور ضمن اطار حضاري جديد يعيد للثقافة العربية هويتها ، بعد أن بقيت طيلة مراحل الانحطاط

العربية صورة مقلدة باهتة من ثقافات الدول التي استعمرتها . وقد مر المفهوم الثقافي الجديد الذي انطلقت منه النهضة العربية الحديثة ، بمراحل . بدأها بأن التزم جانب الحذر تجاه الاتجاهات التي نظرت الى الثقافة نظرة مجردة عن اطارها التاريخي وعن سياقها القومي .

فالفكر العربي المعاصر ، ينبغي حسب هذا المفهوم الجديد أن يتحرك ضمن اطاره الحضاري .

وعلى هذا الاساس ، فان حركة النهضة الثقافية بدأت خلال القرن التاسع عشر ، من محاولات النهوض باللغة العربية ، وحياء التأريخ العربي ، وبعث الثقافة العربية (٦٧) .

وكانت الاقلام العربية والصحافة والترجمات ، تركز على الاشادة بالعزة العربية وبالذور الذي لعبه العرب في الاسلام ، وكان الجيل الاول من المفكرين عرضة للاضطهاد (٦٨) فقد تركزت الحملات ضد المثقفين خلال ولاية السلطان العثماني عبدالحميد .

(٦٧) قصيدة (ابراهيم اليازجي) التي يستنهض بها العرب . وكتابات (جرجي زيدان) حول التراث العربي . وموسوعة (بطرس البستاني) . وكتابات (رفعة الطهطاوي) وترجمات (جمال الدين الافغاني) حول الاصلاح الاسلامي ، و (محمد عبده) حول البعث الذاتي و (عبدالرحمن الكواكبي) حول الاستبداد و (نجيب عازوري) حول اليقظة العربية . . الخ .

لذا هرب المثقفون السوريون الى مصر ، ولجأ المصريون الى
القسطنطينية ، ووصل كثيرون الى باريس ولندن وجنيف) . كما
تركزت الصلوات الاستعمارية في المشرق والمغرب ضد المراكز
الثقافية التراثية .

وكان التأكيد على النظرة الحديثة للاسلام وعلى العروبة
ولغة الضاد التي تجمع العرب على اختلاف اديانهم ، مدخلا
لاكتشاف مرحلة النهضة واكتشاف الشخصية العربية من جديد في
ابعادها التراثية والمعاصرة كل ذلك وسط دعوات متضاربة
واتجاهات ثقافية يركز بعضها على (التحديث)^(٦٩) أي (على
القيم الغربية والاتجاه نحو اوربا الحديثة ، وعلى العلمانية عند
البعض الاخر) جنبا الى جنب مع الدعوات المحافظة التي اخذت
موقف رد الفعل والرفض للحضارة الغربية (وقيمتها المادية) .

ثم ما لبثت الثقافة العربية المعاصرة أن تجاوزت مرحلة القلق
ومواقف رد الفعل ، أي مواقف^(٧٠) (العجز عن صياغة موقف
فكري مركز ومتناسق يحل التناقض بين حركتي التحديث

(٦٨) هشام شرابي (المثقفون العرب والغرب) دار النهار - بيروت
١٩٧١ .

(٦٩) نفس المصدر .

(٧٠) نفس المصدر .

والمحافظة ، الذي كان يشكل طابع تلك المرحلة ، الى موقف تم فيه
التأليف بين الاتجاهين ، بنشوء المفهوم العلماني للعروبة) .

أي بتبلور بدائي للمفهوم الجديد للثقافة العربية ، الذي
ينطلق من التمسك بالتراث القومي الثقافي ، ومن التعامل مع هذا
التراث على ضوء الحياة المعاصرة . وبتخليص مفهوم العلمانية من
المعنى^(٧١) (الذي ذهب اليه بعض الدعوات التي وقعت احيانا في
فخ نقي التراث والهروب المتخفي من شخصيتها الحضارية) .

وقد جاءت انعكاسات الحرب العالمية الثانية على المجتمع
العربي والملاح الجديدة للعالم الجديد الذي نشأ بعد الحرب ،
معززة لهذا الاتجاه نحو تعميق اصالة الثقافة العربية المعاصرة ،
والمزيد من تفاعلها مع المعطيات الجديدة للحياة الحديثة ، على
صعيد المعرفة والتقنية والتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية
والايديولوجية . . الخ .

كما ان جملة تيارات عامة جديدة ، كانهيار المفهوم
الارستوقراطي للثقافة وبروز التيار التحرري والديموقراطي
للثقافة ، ورجحان الثقافة العلمية والتكنولوجية ، ومثابرات
الالتزام في الثقافة وانفتاح الثقافات وبدء نشوء ما يسمى (ثقافة

(٧١) د . انور عبدالمملك . (الفكر العربي في معركة النهضة) دار
الاداب ، ١٩٧٤ ، ص ٢٣١ .

الفضاء) التي تمتد الى ابعاد تتجاوز كوكبنا الارضي * * كل ذلك قد انعكس على الثقافة العربية بعد الحرب العالمية الثانية * ذلك ان ثقافة المرحلة التاريخية الراهنة هي (ثقافة جماهير) ونضال من أجل تصحيح وتقويم الاعوجاج في الحياة البشرية التي ورثت عوامل سلبية * عن المراحل السابقة للتطور ، أما على صعيد الامة العربية ، فالمرحلة التاريخية تسم بنهضة شاملة تتطلب من الثقافة ان تكون سلاحا فعالا في معركة المصير التي تخوضها الامة العربية من اجل تحقيق وحدتها وحريتها ونهوضها الحضاري *

فالثقافة العربية ، كما تتطلبها حاجات النهضة العربية ، لها خصوصية تميزها ، وهي كونها مشدودة الى واقع تغتلي فيه عوامل التناقض ، من تجزئة وتخلف واحتلال صهيوني ونفوذ ومصالح اجنبية ومخططات استعمارية * * ، لذلك فهي بالدرجة الاولى ثقافة تنبع من ارض المعركة ولئن انعكست على الثقافة العربية تيارات الفكر الليبرالي والاشتراكي * * وغيرها ، فان المعاناة الداخلية هي في طريقها الى ان تصهر هذه التأثيرات جميعها ، وان تجعل منها غذاء لثقافة تحررية وحدوية جماهيرية ، تستلهم الجماهير العربية كطاقة نضالية وحضارية ، والتراث العربي الحي ، من أجل انضاج نظرة علمية شاملة تفتح امام النهضة العربية آفاق المستقبل اللائق بالدور الحضاري للامة العربية في هذا العصر *

فالثقافة العربية المعاصرة لا تستطيع ان تكون ثقافة (جزئية) ، لانها مطالبة بمعالجة كل معالم الحياة العربية * وهي لا تستطيع ان تكون (تجريدية) لانها مدعوة الى أن تجيب على الاسئلة التي يطرحها الواقع العربي مباشرة *

ثم هي لا يمكن ان تقتصر على (النخبة) لانها مضطرة الى ان تستنهض الجماهير الواسعة كما انها لا تنحصر في قطر واحد ولا تستطيع أن تتوقف عند (النزعة القطرية) ، لانها تتصدى الى التناقض الاكبر في حياة العرب المعاصرة المتمثل بالتجزئة * ثم انها لا تستطيع أن تنغلق على الماضي بنزعة سلفية متحجرة ، لانها تفقد في هذه الحال قدرتها على التفاعل مع العصر * كما انها لا تستطيع أن تهمل تراثها الا اذا فقدت اصالتها وهي اخيرا مدعوة الى (اعادة بناء الشخصية العربية) ، عبر التلاحم المتزايد والمتصاعد بين حركة الفكر العربي وحركة النضال القومي * أي بين دينامية الثقافة وبين حركة النهضة العربية *

واذا كانت دينامية الثقافة تنجلي من خلال الزمر الخمس للتبدلات الخمس في المجتمع^(٧٢) وهي :

١ - التبدل في العلاقات بين الانسان والطبيعة والمجتمع *

P. H. de laurve. la culture et le pouvoir. op. cit. (٧٢)
p. 313.

٢ - التناقضات في البنى الاجتماعية •

٣ - دينامية التطلعات الانسانية •

٤ - التبدلات الارادية من اصلاحات وثورات •

٥ - العلاقة بين التبدلات السيكولوجية - الاجتماعية ، وبين التبدلات في البنى والمؤسسات •

فان ذلك يعني أن دينامية الثقافة العربية المعاصرة لا يمكن ان تكون شيئاً آخر غير التعبير عن حركة الثورة العربية المعاصرة وايدولوجيتها •

ان تحليل الظواهر (السياسية والاجتماعية والاقتصادية والايديولوجية) التي تميز التطور الذي مرّ به المجتمع العربي خلال ثلث القرن الاخير ، يكشف لنا عن ولادة ثقافة جديدة (قومية تحريرية تقدمية) تحمل ملامح النهضة العربية •

* الثقافة والشخصية العربية :

لقد عبر المنشور الاول الشهير الذي اعده نابليون بوناپرت والذي وزع على الناس مترجماً الى اللغة العربية ، عند حملته لاحتلال الوطن العربي ، التي بدأها بمصر ، عن فكرة اساسية طالما اتخذها الاستعمار بشقيه القديم والحديث ، قاعدة يبني عليها استراتيجيته الا وهي : استخدام الثقافة كسلاح لغزو الشخصية

القومية • وقد (حرص بوناپرت في خطته ان يجعل غزو الشخصية المصرية معركة الكبرى بل انه اعطى لهذه الحملة النفسية أهمية فاقت أهمية السلاح والجنود) (٧٣) •

واذا اخذنا بعين الاعتبار عملية التعريب التي تكاد تأخذ شكل ثورة ثقافية بعد ١٥ عاما من الاستقلال في الجزائر ، واكثر من عشرين سنة من استقلال تونس والمغرب ، وكذلك البدء بتعريب ما تبقي من المناهج العلمية في بعض الكليات الجامعية التي بقيت تدرس باللغة الاجنبية ، كالعراق مثلاً • ثم اخذنا بعين الاعتبار غربة مناهج التعليم عن حاجات النهضة العربية ، وعن حاجات التنسية في الاقطار العربية الى حد بعيد ، وكذلك نسب الامية •• وغيرها من مظاهر الحياة الثقافية والتربوية في الوطن العربي ، اذن لادركنا اننا ما نزال ندفع حتى اليوم ثمن المرحلة الاستعمارية ، ونجر ذبول مرحلة تاريخية سلبية ما نزال تحمل في طياتها قيود التجزئة الثقافية وآثار الاغتراب الثقافي وأننا في صراعنا معها ، انما نهدم هياكل قديمة ونشيد بنى وركائز جديدة ، ونصحح انحرافات ونواجه تناقضات ، ونبني شخصيتنا القومية وثقافتنا الوطنية المنسجمة مع الاهداف الكبرى لكفاح الشعب العربي فالفكر

(٧٣) محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ١٤٤ المؤسسة العربية بيروت - ١٩٧٢ •

العربي المعاصر ، يمر بمرحلة انتقالية هامة يتجاوز من خلالها
التحديد السلبي لهويته (نحن لسنا غربا . لسنا الغرب) الى
التحديد ايجابي لهذه الهوية (نحن انفسنا . نحن عرب معاصرون) .
أي الانتقال من المرحلة التي كانت فيها الثقافة العربية بعيدة عن
الروح العربية وعن روح العصر في آن واحد . الى مرحلة بدء
الالتحام بين الثقافة العربية والشخصية العربية . وقد كان هذا
الالتحام ثمرة للوعي بمواقع الخلل التي كانت تسود العلاقة بينهما ،
وبادراك الطريق المؤدية الى التماسك والالتحام والتطابق فيما
بينهما .

(كان العرب شديدي التأثر باللفظ ، لان الالفاظ كانت
عندهم حقائق نابضة مترعة بالحياة ، فكان يسمعها القلب لا الاذن ،
وتجيب عليها الشخصية كلها لا اللسان وحده ، لذلك كان للفظ
قدسية وكانت بمثابة تعهد ، تربط الحياة وتتصرف بها ، سواء
حياة الفرد ام حياة الجماعة فاللفظة التي كانت كالورقة النقدية
تمثل قيمة معينة من الذهب ، غدت مجرد قصاصة من الورق ،
فنحن نرى نفسنا فقيرة الى حد العدم تستطيع أن تغرق من حولها
يبحر من الكلام . فلا غرابة في أن تفقد الثقة وتلتبس الامور ،
ويكثر الغش والتلاعب . . . كانت الشخصية العربية كلا موحد
وقد آن لنا أن نزيل هذا التناقض ، فنعيد للشخصية العربية

وحدتها . والى الالفاظ معناها وقوتها) (٧٤) .

فقد كان في بلادنا عدد غير قليل من الذين امتصتهم الثقافات
الاجنبية والذين يعيشون باجسامهم بيننا وبافكارهم وارواحهم
مع البلاد الاوربية ، وهم مع ذلك يعطون لانفسهم حق اعطاء الرأي
في مشاكلنا وماضينا وحق التأثير والتوجيه . .

فقد كانت ثقافتهم تشدهم الى وسطها الحي الذي نشأت
فيه . الى الغرب ، لذلك كانوا ينظرون الى المجتمع العربي (نظرة
مجردة) (٧٥) ولم تتوقف عملية (التجريد الثقافي) هذه ، الا عندما
بدأ المثقمون العرب يدركون بأن اختيار الطريق السهل والاكتفاء
بالنظر الى الواقع العربي من خارجه وعبر ثقافة ليست لها جذور في
حياته ، لا يمكن أن يؤدي الى نتيجة ايجابية . وان العملية شاقة
ولا تحدث الا بوجود شخصية عربية مستقلة ذات جذور عميقة
في التراث القومي وذات آفاق عصرية واسعة ومتجددة ، في آن
واحد .

وعندئذ انتقل الفكر العربي المعاصر الى مرحلة جديدة ،
فتحت الصلة بين الثقافة المعاصرة وبين يقظة الشخصية العربية ،

(٧٤) ميشيل عفلق (في سبيل البحث) . ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٧٥) نفس المصدر ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

عبر نوعين من التحدي كانا أقرب الى القانونين بالنسبة للمرحلة العربية المعاصرة وهما :

آ- التحدي الداخلي : الذي يتمثل بظواهر الصراع داخل المجتمع العربي ، بين (البداوة والحضارة)^(٧٦) ، بين التجزئة وتيار الوحدة ، بين الثقافات السلفية والثقافات الحديثة •• فالقيم البدوية ما تزال منتشرة ومتغلغلة في مختلف فئات المجتمع العربي وطبقاته ، والوطن العربي (يحتوي على اكبر امتداد صحراوي على وجه الارض)^(٧٧) ، وهو من ناحية اخرى يضم اطول الانهار واغزرها في العالم تقريبا ، وهو (مهاد لحضارات العراق ومصر واليمن والشام وتونس والمغرب ••) لذلك فهو اكثر المجتمعات كما يقول الاستاذ الوردى (معاناة للصراع بين البداوة والحضارة) واذا كانت البداوة ، كما يقول المؤرخ الشهير (ارنولد توينبي) ، هي (حضارة مجمدة) فان المهمة الاولى للثقافة العربية المعاصرة هو ان تطلقها من عقالها ، وأن تحسم الصراع الداخلي في نفس كل انسان

(٧٦) د . علي الوردى - دراسة في طبيعة المجتمع العربي ، بغداد ، ١٩٦٥ وانظر ايضا دراسة (جابر عبدالحميد جابر) الشخصية المصرية والشخصية العراقية والمنشورة في المجلد (٨) من مجلة العلوم الاجتماعية القومية عام ١٩٦٨ .

(٧٧) نفس المصدر .

عربي وفي تفكيره وفي علاقاته الاجتماعية ، لصالح النهضة العربية •

وكذلك الامر فيما يتعلق برواسب التجزئة وبآثار مراحل الاضطهاد والتحكم الاجنبي ، وبالنظرات السلفية الجامدة •

فالمعركة الداخلية من اجل خلق نفسية الوحدة وعقلية الوحدة والسلوك الوحدوي والنظرة الوحدوية الشاملة الى الامة العربية ، وكذلك الامر فيما يتعلق بقيم الحرية والديمقراطية والتزام مصلحة العدد الاكبر من جماهير الامة العربية وتكوين العقلية المنظمة على التطور •• كلها تحديات داخلية تصطدم بعادات وتقاليد ومفاهيم ونظرات ومصالح مناهضة لها • لذلك كان نشوء الثقافة العربية المعاصرة مقترنا بالحاجة الى تربية جديدة والى تكوين للشخصية التردية وللجيل العربية على اسس فكرية وقيمة جديدة •

فالثقافة بهذا الاعتبار هي (نوع من انواع النضال ، النضال مع النفس ، النضال مع الفكر ، لكي يتعب في تحصيل المعرفة ، ولكي يجراً على تبديل الاسس السطحية في الفكر الشائع ، ويعيد النظر في كل الامور الاساسية حتى يصل الى النظرة الجديدة)^(٧٨) •

(٧٨) ميشيل عفلق ، (في سبيل البعث) ص ٢١ - ٢٣ •

ونحن نلاحظ أن تطور الحياة العربية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، من جهة واتجاهات الإصلاح التربوي في الوطن العربي ، تتجه نحو تنمية مشتركة للثقافة وللشخصية العربية ، ضمن إطار عملية جدلية وفعالية مستمرة للواقع .

ب - التحدي الخارجي : لقد فرض التحدي الاستعماري - الصهيوني على الحياة العربية خلال مرحلة النهضة المعاصرة ، طابع المعركة المصيرية الدائمة ، وفي حالات الاخطار المصيرية التي يجابه فيها الانسان كفرد والامة كمجموع ، في كل يوم قضية الحياة والموت ، لا تتوقف المجابهة على الاسلحة المادية وعلى مخزون العناد وعلى القوى المنظمة المعبئة للقتال . بل ان على هذا المستوى من المجابهة ، يصبح التحدي شاملا وكليا ، ويستنهض الشخصية بكاملها فيتحدى الصراع الفكر كما يتحدى البنيان الداخلي للحياة الفردية والاجتماعية ، ويتحدى القيم التي تبنى عليها هذه الحياة نفسها .

لذلك كانت الحروب المتسلسلة مع الكيان الصهيوني المفروضة على العرب لاعاقبة نهضتهم وتحررهم ووحدتهم ، بمثابة منعطفات اساسية في تحقيق الالتحام بين الثقافة العربية المعاصرة وبين الشخصية العربية التي تواجه قدرها وتصارع عدوها .

ففي عام ١٩٤٨ ، عام النكبة الاول في فلسطين ، حاول العدو ان يستغل فشل العرب في منع الكارثة القومية ، ليعطي انطباعا عن الشخصية العربية وعن عجزها وفشلها . في حين ان المعركة لم تكن تمثل القوة العربية ، بل كانت تعكس صورة الضعف والانتقسام والتجزئة والتخلف . . . ، أي كانت تعبر عن واقع أمة مغلوبة على امرها ، لم يكن مصيرها بيدها ، وهي ما تزال في اول الطريق نحو التحرر . فقد كان معظم الاقطار العربية آنذاك خاضعا للاستعمار فاقتدا القدرة على اتخاذ قرار التصدي للاحتلال الصهيوني .

وفي عام ١٩٥٦ ، عام العدوان الثلاثي (البريطاني والفرنسي والصهيوني) على مصر ، حاول التحالف الاستعماري الصهيوني أن يرهب ارادة التحرر التي تمثلت بتأميم قناة السويس آنذاك وبمقاومة الاحلاف الاستعمارية وتحطيم احتكار السلاح ، وان يحطم روح المبادهة في الشخصية العربية ، وان يخنق شعلة الحماسة والروح النضالية ، وأن يردع العقل العربي عن الخروج عن الاطر التي حددتها له الثقافة الاستعمارية .

وفي عام ١٩٦٧ ، عام نكبة ٥ حزيران (٥ يونيو) ، تركزت قوى الصهيونية والاستعمار على تثبيت روح الهزيمة في الفكر العربي وفي النفسية العربية . وكثرت الابحاث حول التخلف التكنولوجي وحول عجز الذهن العربي عن فهم حقائق العصر ،

والشخصية العربية عن مواجهة التحديات الخارجية (٧٩) . وحتى
بعد حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، حيث اقترن الانهيار في جبهة العدو
بانهيار الصور العنصرية المركبة عن الشخصية العربية (٨٠) ، فقد
استمرت المحاولات لضرب الشخصية العربية من داخلها ونزع ثقتها
من نفسها ، وإعادة الذهن العربي الى دوامة الترويض على الاستسلام
للامر الواقع .

كل ذلك بالرغم من أن رد فعل الامة العربية على التحديات
الخارجية كانت سلسلة تفوق فيها الانتصارات حجم النكسات لان
مرحلة الامة العربية الراهنة مرحلة نهضة وصور تشد الامة العربية
نحو الحرية واستكمال التطور ونحو الوحدة العربية ، وتنقل
الشخصية العربية من مراحل التخلف والانحطاط الى مراحل الوعي
والثقافة والحضارة .

فقد كانت انتفاضات سوريا المتلاحقة بعد الاحتلال الصهيوني
منذ عام ١٩٤٩ وكانت ثورة مصر عام ١٩٥٢ ، ثم ثورة الجزائر عام
١٩٥٤ ثم استقلال تونس والمغرب والسودان ، ثم الوحدة التاريخية
بين مصر وسوريا وثورة ١٤ يوليو في العراق ، عام ١٩٥٨ ، سلسلة

(٧٩) انظر كتاب (د . السيد ياسين) الشصية العربية بين المفهوم
الاسرائيلي والمفهوم العربي .

(٨٠) انظر كتاب (٦ تشرين بين التسوية والتحرير) دار الطليعة
١٩٧٤ ، ص ٢٠ - ٢٤ .

صاعدة اذهلت العالم . لانها كانت تعبيراً عن تفتح الشخصية العربية
وازدهارها عبر وحدة النضال العربي .

لذلك كان طبيعياً ان تنتبه القوى الاستعمارية الى خطورة هذا
التحدي التاريخي على مصالحها ، فيسفي التحالف الاستعماري
الصهيوني صعوداً في تركيز تأمره من اجل ضرب هذه السلسلة من
الانتصارات التي حققت تلاحماً قوياً بين الوعي العربي وبين النضال
العربي ، بين الثقافة العربية والشخصية العربية .

فكانت مرحلة الستينات مرحلة جدلية من المد والجزر في
التصدي للتحديات الخارجية ، ثم جاءت مرحلة السبعينات التي
شهدت (حرب أكتوبر) و (ما بعد حرب أكتوبر) ، وكيف أن
التحالف الاستعماري الصهيوني يتابع مخططاته في تحويل
الانتصارات العربية الى نكسات جديدة تدخل على الشخصية العربية
قلقل دائماً ، وتفتح في الحياة العربية ثغرات جديدة ، وتضع الذهن
العربي امام مفارقات لا يمكن ان يستوعبها المنطق .

بيد أن مرحلة النهضة العربية كمرحلة تاريخية حتمية ، انما
تنطوي باستمرار على القدرة على امتصاص التحديات الخارجية
وربطها بالتحديات الداخلية ربطاً جديلاً ، ينقل مواقع التطور في
المجتمع العربي نحو مواجهة أكثر ايجابية وأعظم طاقة ، كلما اتسعت
مشاركة الجماهير العربية في تقرير المصير العربي ، وكلما اشتد

التلاحم الداخلي بين الشخصية العربية وبين الثقافة العربية المعاصرة .
وعلى هذا الاساس ، ينبغي أن تتوقع امعانا من اعداء النهضة
العربية ، في موقفهم العنصري من الشخصية العربية ومن الثقافة
العربية .

فصورة الشخصية العربية في الغرب هي نقيض الصورة
الايجابية المعطاة للشخصية الصهيونية ، سواء في الكتابات والصحافة
والاعلام . والمفهوم الغربي كالمفهوم الصهيوني ، يربط السمات
المميزة للشخصية العربية بتطور الصراع بين العرب وبين (الاستعمار
الغربي والصهيوني) . وكلاهما عنصري ، لان المعركة هي اساسا
بين عنصرية الاستعمار والصهيونية وبين انسانية القومية العربية
والنهضة العربية^(٨١) لذلك لا يمكن أن تتصور عملية انصاج الشخصية
العربية والاتحام بين الثقافة العربية والشخصية العربية ، من دون
جهد منظم وجهاد مستمر على مختلف الاصعدة الاعلامية والثقافية
لتوضيح حقيقة الهوية الحضارية للنهضة العربية ، جنبا الى جنب
مع تعبئة الحياة العربية وتركيزها حول مجابهة التناقض الاساس
الذي يعمق تطور المجتمع العربي وتقدمه الذي يتمثل بالتحديات
الداخلية والخارجية التي تحدد الشخصية العربية في نمائها وفي
تعبيرها الثقافي الاصيل عن ذاتها . وبهذا المقياس ، نستطيع أن

(٨١) انظر آفاق عربية ، بغداد - العدد ١٩٧٦/٥ والعدد ١٩٧٦/٤ .

تتكلم عن النضال الثقافي الذي يشكل البوتقة الحقيقية التي تنصهر
في داخلها كل آثار التفاعل بين الثقافة العربية المعاصرة وبين حركة
النهضة العربية ، والتي تجلو حقيقة الشخصية العربية ذات الطابع
الانساني الحضاري ، امام العالم كله . (ان للبشرية تاريخا واحدا
مشتركا ، برغم ما يحتدم بداخله من انقسامات قومية وطبقية .
وللثقافة كذلك تاريخ بشري مشترك . . والثقافة الانسانية الشاملة
هي خلاصة التجارب القومية والاجتماعية عبر التاريخ) (٨٢) .

واذا كان العرب في نهضتهم المعاصرة يتطلعون الى تحقيق
انسانية اكثر انسجاما مع القوانين العامة لتطور البشرية والحضارة
فان المحافظة على الطابع الانساني والحضاري لثقافتهم ولشخصيتهم
القومية بالرغم من صراعهم مع القوى الاستعمارية والصهيونية التي
تتقف في وجه التطور التاريخي لشعوب القارات الثلاث بوجه خاص ،
اما يشكل الميزة الكبرى والقوة الاساسية لاشعاعهم وتأثيرهم في
تجارب العالم المعاصر . واذا كان تروتسكي في كتاب (الادب
والثورة) ، يعتبر ان للاعتقاد بأن (لروسيا الام) دورا في تقديم
طريقة كاملة في الحياة الى سائر العالم وليس مجرد افكار ونماذج
سياسية ، بأن لهذا الاعتقاد ، اثرا كبيرا في جعل الوعي الثقافي اكثر
اصطباغا باللغة السياسية^(٨٣) .

(٨٢) محمود امين العالم (الثقافة والثورة) ص ١٦٨ .

(٨٣) البيوت (ملاحظات حول الثقافة) ص ١١٠ .

كذلك فإن من الطبيعي أن يكون للقاسم المشترك الذي يوحد فضال الجماهير العربية في الوطن العربي الكبير ، دور في جعل القومية العربية على الصعيدين الايديولوجي والسياسي بمثابة اللحمة والسدى للثقافة العربية المعاصرة وللشخصية العربية .

وإذا كانت (الثورة السياسية والاجتماعية قد سبقت الثورة الثقافية) في الاتحاد السوفياتي ، كما يقول لينين^(٨٤) فإن المضي فيها ، (كان يشكل شرطا اساسيا لكي تصبح بلاده اشتراكية بكل معنى الكلمة) . وهذه الثورة لا تتحقق ، كما يقول (رولاف لوروا)^(٨٥) ، الا اذا تحققت شروط ثلاثة :

أ - حصول الجماهير الشعبية على ما افتقرت اليه من ثقافة .

ب - خلق شروط جديدة للفعالية النوعية للمثقفين والاعتراف بدورهم الاجتماعي .

ج - البتر الارادي مع الماضي القريب والتمثل النقدي للتراث الثقافي .

وعلى ضوء ذلك يتبين أن احدى المميزات الاساسية لحركة النهضة العربية انما تتجلى في الالتحام المتزايد بين الثقافة وبين

Yacques Rigaud la culture pour vivre. op. cit. p. 123. (٨٤)

(٨٥) نفس المصدر . ص ١٢٤ .

الشخصية ، بين الفكرة العربية وبين حركة التغيير الشاملة في المجتمع العربي .

فالامة العربية ، تتميز في هذه المرحلة التاريخية من تطورها ، بكون نهضتها (ايجابية) لا تتوقف عند حدود رد الفعل على الحالات الطارئة التي تعترى واقعها الاجتماعي ، بل تتجاوز ذلك الى التعبير المتكامل عن شخصيتها الحضارية التي تأخذ بحكم عمق التجربة العربية المعاصرة واتساعها ، بعدا انسانيا متميزا .

ف (الثقافة العربية) هي تعبير عن شخصية تنمو وتفتح وتتجدد وتبدع . و (الشخصية العربية) هي وعي متزايد وموقف حيوي من مشكلات الامة .

وكلاهما : الثقافة العربية والشخصية العربية ، هما التعبير المباشر عن حركة النهضة العربية المعاصرة ، المنسجمة مع حركة التأريخ التقدمي للبشرية واذا كانت ابحاث علماء الانسان (الاثريولوجيون) المعاصرة قد أكدت الدور المرجح للعوامل المحيطة في تكوين الشخصية الاجتماعية والفردية^(٨٦) ، أي أن (الشخصية انما هي بالدرجة الاولى نتيجة ومحصلة للثقافة) ، فاننا نستطيع أن نقدر على ضوء ذلك مستوى المسؤولية الثقافية في

R. Linton, le fondement culturel de la personnalité. (٨٦)
Paris. 1968. p. 123.

هذه المرحلة التاريخية من حياة الامة العربية •

فالأجيال العربية اليوم محاطة بانواع شتى من التأثيرات ، بعضها عفوي وبعضها مصطنع ومخطط ، من اجل الجيلولة دون نشوء شخصية عربية مستقلة متحررة الارادة والفعل ، مستوعبة لحاجات المرحلة التاريخية ومستعدة لان تضع ذاتها كاملة في طريق النهضة العربية • فلا بد ان تكون نقطة الانطلاق ، هي في خلق المناعة الثقافية وتكوين الحس النقدي جنباً الى جنب مع الافتتاح الثقافي الاصيل المرتكز الى وعي قومي يستمد من التراث القومي في الماضي ، ومن المجابهة الدائمة للتحديات الراهنة ، مادته لبناء ثقافة معبرة عن شخصية الامة ، وجعل هذه الشخصية بمستوى القدرة على تحقيق تحول تاريخي في حياة الانسانية • أي بمستوى الانجاز الحضاري والثقافي اللائق بأمة حضارية كأمتنا العربية •

ان الابحاث (حول الشخصية القومية) حديثة ، وقد كان للحرب العالمية دور في تطويرها • وقد حاول الباحثون الامريكيون ثم الصهيونيون أن يوظفوا هذه الابحاث بعد الحرب للقضاء على الثورة الفيتنامية وعلى الثورة الفلسطينية •

وقد كان البحث عن البناء الاساسي للشخصية العربية موضع اهتمام عدد متزايد من الباحثين كان معظمهم يهدف انى استخدام العرفة بالشخصية العربية كسلاح لمحاربتها وتشويهها • واذا كان

من درس ينبغي لنا نحن العرب أن نتزعه من التجربة العربية المعاصرة فهو الحاجة الى المزيد من المعرفة بالذات والعدو ، لان هذه المعرفة هي السلاح الاقوى في الصراع مع التحدي الداخلي والخارجي •

فالدراسة المنهجية للايديولوجية الصهيونية العنصرية ، وللممارسات الفاشية الجديدة في فلسطين ، والكشف عن حقيقة الهوية العنصرية المعادية للانسانية وللحضارة في الكيان الصهيوني ••

كل ذلك ، بالاضافة الى المزيد من الوعي لتراثنا القومي الانساني وتركيزنا للنهضة العربية على اسس حضارية انسانية ، أي لجعل شخصيتنا القومية شخصية ثقافية ذات اشعاع منسجم مع روح العصر •• انما يشكل ذلك المنعطف التاريخي في حياتنا وفي الانتصار على عدونا وفي تغيير وجه العالم •

ان ثقافة (المواجهة المصيرية) وشخصية (الامة المكافحة) من اجل حقها في الحرية والوحدة والنهضة ، هما الجواب التاريخي على المرحلة الراهنة من تطور المجتمع العربي •

الفلسفة التربوية والثقافة العربية

الفلسفة التربوية بطورها الحديث نشأت في أوروبا في القرن التاسع عشر، وكان لها جذور في الفلسفة اليونانية القديمة، وخاصة في أفكار أفلاطون وأرسطو. وقد تبلورت هذه الفلسفة كردة فعل على التغيرات الاجتماعية والسياسية التي طرأت في تلك الفترة، والتي كانت تهدف إلى إصلاح المجتمع وتربية المواطن المثالي.

من أهم أسس الفلسفة التربوية الحديثة، مبدأ التنوع والشمولية، الذي يؤكد على أهمية الاهتمام بجميع جوانب الشخصية، العقلية والجسدية والنفسية، وليس فقط الجانب المعرفي. كما تؤكد على دور البيئة والتربية في تشكيل الفرد، وليس فقط الجينات والوراثة.

في الثقافة العربية، نجد جذوراً عميقة لهذه الفلسفة التربوية، خاصة في التراث الإسلامي الذي أكد على التربية الشاملة للإنسان، التي تهتم بتربيته في الدين والخلق والعلم والعمل. وقد انعكس هذا في العديد من النماذج التربوية التي أنتجها الحضارة الإسلامية، والتي كانت تهدف إلى إعداد الفرد ليكون عضواً فعالاً في المجتمع، قادراً على تحمل المسؤولية.

ومع ذلك، فإن الفلسفة التربوية الحديثة في الغرب، وخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين، قد طوّرت هذه المفاهيم، وأضحت أكثر منهجية وعلمية. وقد ساهمت في تطوير نماذج تربوية جديدة، تأخذ في الاعتبار التنوع الثقافي والبيئي، وتهدف إلى تحقيق أقصى إمكانات كل فرد.

في الثقافة العربية المعاصرة، نجد تحديات كبيرة في تطبيق هذه الفلسفة التربوية الحديثة، وذلك بسبب العديد من العوامل، منها: ضعف الاهتمام بالتربية في المناهج الدراسية، والتركيز المفرط على الجانب المعرفي، وإهمال الجانب الأخلاقي والقيمي. كما نجد تحديات في تدريب المعلمين، الذين يحتاجون إلى تحديث معارفهم ومهاراتهم التربوية، ليتواءموا مع متطلبات العصر الحديث.

لذلك، فإن الاهتمام بالفلسفة التربوية الحديثة، وتطبيق مبادئها في الثقافة العربية، أصبح ضرورة ملحة، لضمان إعداد جيل قادر على مواجهة تحديات المستقبل، وتحقيق التنمية المستدامة.

الفلسفة والتربية بدءا توأمين كالسياسة والتربية . وهما
ينتميان الى أم واحدة هي ثقافة الامة . فالانسان هذا (الحيوان
الفيلسوف) ، كما يقول (شوبنهاور) ، و (الحيوان السياسي) كما
يقول (ارسطو) ، قد جعل من الفلسفة مجالا لارتداد المجهول . كما
جعل من السياسة طريقا لتنظيم الحياة ، فكانا اشبه بطرفي معادلة
تحتل التربية مكان المركز بينهما . والتربية بدورها هي تجسيد
لثقافة الامة ونزوعها الحضاري . وشأن معادلات الحياة كلها ، كان
لا بد للعلاقة بين الفلسفة والتربية ان تتطور مع تطور الثقافة ، أي
مع تجربة الانسان والتحولات الاجتماعية . لذلك كان لا بد لكل
حديث عن (الفلسفة التربوية) ، باعتبارها (تركيبا) جديدا متجاوزا
لمرحلة الطلاق المصطنعة بين الفلسفة والتربية ، من البدء بالبعد
التاريخي للثقافة ، الذي يتيح لنا ان نميز من خلاله ، العوامل التي
انتهت الى الجمع بينهما والمبادئ التي تكمن وراء الوحدة الثقافية
التي تشدهما الى حياة الامة .

١ - ان الفلسفة كأساس نظري للتطبيق التربوي ، توازي المرحلة التي كانت فيها التربية تابعة للفلسفة وملحقة بها ، شأنه كل العلوم في الماضي ، وهذه المرحلة تصعد الى بدء تبلور الثقافة ، حيث النظرات الشمولية الى الحياة في الحضارات الاولى : مثال على ذلك :

أ - (نموذج) ملحمة جلجامش في الواحها الاثني عشر التي تنطوي على بذور (فلسفة تربوية) تركز الى مفهوم (البطل التاريخي) الذي هو نسيج من قيم وفضائل ثقافية (المعرفة والبصيرة ، والتجربة والقوة ، والحكمة ، والتواضع ، والمحبة ، والبأس في مقارعة الظلم والاعوجاج في الحياة البشرية ، والنظرة البطولية الى الموت) ، لذلك فإن (جلجامش) يحفر بعمق في ذاكرة الانسانية .

ان ملحمة (جلجامش) اقدم نموذج من ادب الملاحم البطولية في التاريخ ما تزال شابة في ثقافات العالم بالرغم من مضي اكثر من ستة الآف سنة على كتابتها .

وفلسفتها التربوية ، تجلى من خلال العبارات التي تقول :- هو الذي (رأى) كل شيء ، . . فغني بذكره يابلادي أي : جمع فضيلتي : (الرؤية) و (البصيرة) .

هو الذي عرف جميع الاشياء ، وافاد من (غيرها) أي امتلك (المعرفة النظرية والعملية) .

- هو الذي (ابصر الخفايا) و (كشف عن المجهول) ، (أي الشغف بالمعرفة والكشف) .

هو (الحكيم) العارف بكل شيء أي الجامع (للعلم والنضج) .
حياه الله العظيم (بالحسن) وخصه (بالبطولة) أي امتلك (الجسار والقوة) .

انه (قوي) و (ذو بأس شديد) أي انه قد تميز (بالشخصية والارادة) .

لقد سلك اسفارا بعيدة متقلبا بين التعب والراحة (أي ان حياته اصبحت غنية (بالتجربة والافق) .

انه لا يخشى (القتال) لأن (السقوط في القتال مبارك) (النظرة البطولية الى الموت) .

انه يصارع الشرير كي يزيل الشر من على الارض (له رسالة) .
هو لا يتكل على قوته وحدها ، بل يتبصر في امره ، ويتسع الى مشورة الاخرين أي انه يتميز (بالتواضع والديسقاطية والروح الاجتماعية) .

لقد أرهف السمع وأصغى الى مشورة ابيه (أي أنه يدرك أهمية تواصل الخبرات عبر الاجيال) .

انه الصديق الناصح الوفي الذي يجب صديقه كما يجب نفسه (أي انه يستوعب الاساس العميق للترابط الاجتماعي) .

ابعاد انسانية خالدة

ان هذه الصورة الجزئية تعكس مبادئ التربية الحسية والعقلية والاجتماعية والخلقية والجمالية ، التي يربط فيما بينها مفهوم ثقافي يتلخص (بالبطولة) ، يشكل (نواة) الفلسفة الاولى للحياة في عراقنا الحضاري في القديم .

ب- وقد تطورت بذور هذه الفلسفة التربوية . فعلى الصعيد العربي ، نلس في حياة العرب في الجاهلية ، امتدادا لفلسفة البطولة تلك ، في ملاحم الشعر التي انفرست مفاهيمها التربوية في اجيال استطاعت فيما بعد ان تحبل لواء رسالة تاريخية عظيمة ، كانت بمثابة ثورة شاملة (روحية واجتماعية وقومية وحضارية) ذات ابعاد انسانية خالدة .

فسواء لدى الجيل الاول من شعراء الجاهلية ، أمثال المهلهل وتأبط شرا ، وعروة بن الورد والشنفرى ، أو في معلقات الجيل الثاني ، أمثال طرفة بن العبد وزهير بن ابي سلمى ، وعنتر وغيرهم كعمر بن كلثوم ، تتبين مفهوما ثقافيا واحدا يرمز الى الشخصية الموحدة المتسامكة التي تدرك بأن لها هدفا كبيرا في الحياة ، هو اقوى من كل مقومات الحياة ، واقوى من الموت .

ان هذا المنظور الثقافي الى الحياة النابع من (فلسفة البطولة) قد عبر عن نفسه ، من خلال التركيز على الصفات والخصال

والفضائل التي تحدد شخصية الانسان العربي في تلك المرحلة والاطار التربوي لتكوين تلك الشخصية . فالبطولة لا تعني القوة المجردة والعنف والقسوة الكافرة بالعواطف والحس الانساني ، انها ليست بذرة الفاشية ونواة الطغيان بل هي شبكة من الفضائل المتكاملة التي تحدد الشخصية القوية الغنية الممتلئة طاقة وقدرة وعطاء ، المتقدمة عاطفة وذكاء فالبطل هو الوجه المقابل للطاعة . انه رمز لكمال انساني مناقض لرموز الانحطاط والضياع ، انه (الانسان الحقيقي) الذي يمتلك :

★ صفات الشجاعة والكرم والحلم ورجاحة العقل والاخلاص والوفاء والغيرية ، في (وصية لقيط الايادي لقومه) حيث يقول :

وقلـدوا امركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده ولا اذا عض مكروه به خشعا
مسهد النوم تعنيه اموركم يروم منها الى الاعداء مطلقا
وليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

★ وهو المائل في شجاعة (طرفة) ومروءته وكرمه وتحديه لنموت وتعامله البطولي مع الزمن :-

اذا القوم قالوا من فتى خلت اني عنيت فلم أكسل ولم اتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم ارفد

الا ايذا الزاجري احضر الوغى
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي
وان ادع للجلى اكن من حماتها
انا الرجل الضرب الذي تعرفونه
اذا ابتدر القوم السلاح وجدتي
ارى الموت اعداد النفوس ولا ارى
★ وهو قائم في شجاعة عنتره المزوجة بالترفع والتعفف
والتسنع باخلاق الفرسان :-

هلا سألت القوم يا ابنة مالك
يخبرك من شهد الوقعة انني
فأرى معانم لو أشاء حويتها
لما رأيت القوم أقبل جمعهم
ان كنت جاهلة بما لم تعلمي
أعشى الوغى وأعف عند المغنم
ويصدني عنها الحيا وتكرمي
يتذاكرون كررت غير مذمم
★ وكذلك في حكمة زهير بن ابي سلمى البطولية :-

ومن هاب اسباب المنايا ينلنه وان يرق اسباب السماء بسلم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
ومن يك ذا فضل فيخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومهما تكن عند امرىء من خليفة وان خالها تخفى على الناس تعلم
لسان القتي نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

الحياة - الملحمة :

★ ان (فلسفة البطولة) هذه ، التي عبرت عن نفسها بصور
جزئية في الجاهلية ، تحولت في ثورة الاسلام ، الى بنيان تربوي
للجيل الجديدة الثائرة ، لان حياة العرب برمتها قد تحولت الى
ملحمة بطولية واصبحت الرسالة تعبيراً عن فيض البطولة ، فانتشرت
الحياة العربية لتساهم في تجديد حياة البشرية كلها .

ومنذ ذلك الحين والامة العربية تتعامل مع نفسها ومع العالم
على اساس تلك النظرة الحضارية ، النابعة من نزعة انسانية تقدمية ،
لذلك كان التاريخ العربي مسرحاً لتفاعل دائم مع الافكار والتجارب
والقيم ، التي شكلت مسار التقدم والحضارة في العالم وكان
صراعها - صراع الامة العربية - مع قدرها دوماً صراعاً بطولياً .

ج - فليس من عجب ، في هذه المرحلة من تاريخ تطور
المعرفة البشرية ، التي اشرنا اليها في البدء . وهي المرحلة التي كانت
فيها التربية مجرد تطبيق لمفهوم ثقافي وفلسفة اجتماعية اختبارية ،
قبل أن تأخذ الفلسفة شكل مذاهب محددة في الحضارة اليونانية
القديمة . . . ، ليس من عجب ان تنتزع الامة فلسفتها التربوية من
ثقافتها ، أي من حصيلة تفاعلها مع بيئتها ومع تجربتها وصراعاتها .
أي من انضاج لنظرة الى الحياة قائمة على (فكرة البطولة) . ثم
ان احتكاك الفكر العربي بالفلسفة اليونانية حيث (جمهورية

افلاطون) و (سياسيات ارسطو) و (تساقيات افلوطين) ، الى جانب المذاهب الابيقورية والرواقية ، كان لابد أن يؤدي الى تطوير النظرة الفلسفية التربوية عند العرب ، على اساس من التفاعل الثقافي مع الفكر الفلسفي اليوناني . فالفارابي في (آراء أهل المدينة الفاضلة) وابن سينا في كتاب (السياسة) وابن الطفيل في (حي بن يقظان) والغزالي في (المنقذ من الضلال) ورسائل (ابن مسكويه) و (اخوان الصفا) وابن خلدون في مقدمته .. وكثيرون آخرون، كابن رشد وابن سحنون وابن عبد البر الاندلسي، والقاسبي والزرنوجي والعموي والسبكي والسمعاني والخطيب البغدادي .. قد اضعوا نظرات تربوية على ضوء تفاعل الفكر العربي مع التراث الثقافي العالمي الذي أخذ يتبلور على شكل نظريات ومذاهب ، بقيت التربية تشكل ضمن اطارها نقطة التقاطع بين النظرية الفلسفية والمجتمع .

وقد استمر هذا التفاعل حتى انطوت الصفحات المشرقة من الحياة العربية ، ودخلت الامة العربية بعد القرن الثالث عشر تدريجيا في عصر الظلمات الذي نطلق عليه اسم عصر الانحطاط حيث عرفت الامة العربية انواع السيطرة الخارجية والتفتت والتجزئة فتخلقت عن قافلة البشرية التي بقيت في مقدمتها طيلة قرون ..

الثورة العربية في العالم المعاصر :

د - وعندما انحسرت تلك المرحلة وبدأت ملامح النهضة العربية ، بعد قرون من الانحطاط والضياع ، عاد الفكر العربي الى التفاعل مع حركة الفكر والتقدم في العالم ، ليكتشف من خلال هذا التفاعل موقعه ، ومكان الثورة العربية ، في العالم المعاصر ، ويتبين على ضوء الصراع المصري للامة العربية ، الفلسفة التربوية التي يبني على اساسها حياة الاجيال الجديدة .

وكانت العلاقة بين الفلسفة والتربية ، قد انتقلت على صعيد العالم وتطور المعرفة فيه ، الى مرحلة جديدة مختلفة تماما عن المرحلة التي عرفتتها من قبل . فالتربية لم تعد جزءا من الفلسفة ، ولم تعد تشكل جانبها التطبيقي الملحق بالنظرية الفلسفية فقط . فقد انتقل مركز الثقل من الفلسفة الى التربية فنشأ علم التربية وتفرع هذا العلم الى علوم التربية : التربية التجريبية ، والتربية المقارنة ، والتخطيط التربوي ، والاحصاء التربوي ، وعلم النفس التربوي ، وعلم المناهج ، وعلم الطرائق ... الخ .

٢ - في هذه المرحلة الثانية من مراحل العلاقة بين الفلسفة والتربية كان الفكر البشري قد اتم دورته الثقافية في الانتقال من فلك الفلسفة الى فلك العلوم ، فبعد (استقلال علوم الرياضيات) بدأت مسيرة الاستقلال عن الفلسفة ، ثم جاءت الفيزياء ثم الكيمياء

ثم علوم الحياة وعلوم النفس والاجتماع، واخيرا استقلت علوم التربية، واصبحت العملية التربوية تستند الى ايدولوجيات عامة موجهة .

فبعد محاولات افلاطون وارسطو وافلوطين الفلسفة، وسنبوزا في كتابه (الاخلاق) ، وكنظ في (نقد العقل العملي) ، ونيشيه في (هكذا تكلم زرادشت) وبركسون في (منبع الاخلاق والدين) وجان بول سارتر في (الاخلاق الوجودية) . وبدلا من المذاهب الفلسفية التي لم تفقد تأثيرها تماما ، بدأت الافكار تتجه الى المجتمع، بعد ان ظلت طويلا متمركزة حول الطبيعة وما وراء الطبيعة وحول (المطلق) ، لذلك قامت الافكار بنقله اساسية ولم تعد معها مجرد تصورات ذات نسق مغلق ونظري وتجريدي ، بل تركزت حول مشكلات الانسان واصبحت افكارا موجهة للعمل . ولم تعد وظيفتها الاكتفاء بوصف الوجود ، بل اصبح هدفها تغيير المجتمع . فالثقافة اصبحت اكثر تأثيرا وفعالية في الوجود الاجتماعي ، واصبحت موجهة للعمل . ووجد الفكر العربي نفسه امام الایدولوجيات الليبرالية والاشتراكية والماركسية . . وكان عليه ان يقوم بما سبق له ان فعل عندما تثل الثقافات في الماضي وكانت له حضارته وثقافته الاصلية .

يقظة حياة ووجود :

ان اليقظة الجديدة في الحياة العربية لم تكن مجرد يقظة فكرية وثقافية بل كانت يقظة حياة ووجود ومصير ، تشكل الثقافة احدى ملامحها البارزة ، لذلك فان الفكر التربوي ومعاناته الخاصة انما كانت جزءا من معاناة شاملة وعميقة للوجود القومي ، وقد اخذت معنى المشاركة في التفتيش عن طريق الانقاذ للامة ، طريق الانبعاث الجديد . وعلى ضوء ذلك وضعت الایدولوجيات المعاصرة ، كما وضعت الفلسفات والنظريات الفلسفية من قبل على محك حاجات النهضة والانبعاث القومي فكانت الایدولوجية العربية الثورية وكانت فلسفتها التربوية الاصلية . واذا اخذنا بعين الاعتبار رواد النهضة العربية عبر اكثر من قرن ، لفت انتباهنا ظاهرة غلبة مهمة التربية والتعليم على عمل الجيل الاول من المفكرين العرب ، وان الفلسفة التربوية التي تهيمن على نظراتهم نابعة من فكرة النهضة العربية ذاتها ، وان انعكاسات الفكر التربوي على الوطن العربي قد اخذت شكل الاتجاهات الرئيسية التالية :

أ - فلسفة تربوية تأثرت بالفلسفات المثالية وبالمفاهيم الليبرالية وانطلقت من الاهتمام بالتربية الفردية ، بالطفولة والحرية والديمقراطية والعلاقة بالطبيعة وتعاطفت مع افكار جان جاك روسو

في كتابه (اميل) وبستالوتزي (الذي توقع الفيلسوف الالماني « فخته » بعث الامة الالمانية من معهده المشهور) وفرويل وسبنسر ومونتوري ودكرولي ودالتون وفرنيه وكروششايز وجون ديوي ، وغيرهم حيث تعتبر (فردية الطفل مقدسة) ، وحيث ينبغي ان تتبع فروع التعليم ومستوياته (نمو الطفل وتطوره) ، وينظر الى التربية كعملية (طبيعية عفوية) ، وحيث يكون (العلم اساس التربية) ، وتتقدم (التربية) على (التعليم) ، وتساعد التربية الى علم النفس ، ويكون (الطفل هو محور التربية) ، وتصبح (الطفولة غاية في ذاتها) وتكون التربية (وظيفية) قائمة على اساس الحاجة الى المعرفة والى العمل وحيث العمل (حر) والنشاط حر ، وحيث يشكل (اللعب) اساس النشاط الكاشف عن القابليات والاولاع والميول والاتجاهات النفسية ومستوى ذكاء ، وحيث (الاستقلالية) التي تسمح للطفل بان يصنع قانونه بنفسه وحيث (البيئة الطبيعية) شرط من شروط تفتح الشخصية . وحيث ان التربية مختلطة وحيث (الروح الاجتماعية) تشكل اساسا لتعزيز الثقة بالاسان وخلق جو من التآؤل والسعادة . . الى غير ذلك من مبادئ التربية الحديثة ، التي تشكل امتدادا للاطار الثقافي والحضاري الاوربي في جزئه الراسالي حيث الثقافة البورجوازية والايديولوجية الليبرالية وربط العلم باطار سياسي واجتماعي تهيمن عليه طبقة اجتماعية لعبت دورا تحريريا للمجتمع الاوربي من الاقطاع الا انها صادرت فيما

بعد الحرية واستغلتها وجعلتها أداة لخدمة مصالحها وحجبتها عن الجماهير الواسعة الكادحة .

تيار اخر :

ومثل هذه الايديولوجية ، قد وجدت لها في المرحلة الاولى من النهضة العربية المعاصرة صدى في الاوساط التربوية المدرسية الاكاديمية التي عزلت التربية عن اطارها السياسي والاجتماعي وكذلك في الاوساط السياسية ذات الثقافة الغربية ، المغترية التي ارتكبت الى جانب خطأ المحاكمة بالمجانسة وهو خطأ منطقي شائع ومعروف خطأ الاستسلام الى الحلول السهلة ونقل الصيغ الجاهزة وتجاهل نقطة الانطلاق وطبيعة المرحلة العربية وتناقضات الواقع العربي .

ب - اما الاتجاه الثاني لفكر التربوي والفلسفة التربوية ، فقد تمثل في التيار الذي اهتم بالاصلاح التربوي وبالمحتوى الاجتماعي لفكرة الحرية ، والتربية الاجتماعية وبفكرة التغيير الاجتماعي ، وبتكوين المواطن المستوعب للتناقضات الاجتماعية ولحاجات التغيير والتطور الاجتماعي وللثورة على الواقع ، وقد اهتمت هذه النظرة التربوية بالبعد السياسي والايديولوجي للعملية التربوية ، واكدت على ضرورة خلق الوعي الاشتراكي ، وعلى فكرة التقدم الاجتماعي ، وتأثرت تأثرا واسعا بالمدارس الاجتماعية والايديولوجيات الاشتراكية . .

ج - بيد ان الفكر العربي الثوري الذي تفاعل مع الزمريين السابقين من الافكار والاتجاهات، تفاعلا حرا واصيلًا، قد استطاع ان ينفذ الى ما فيها من عناصر ايجابية وان يضعها في اطارها الصحيح فالحرية من دون الاشتراكية ، لفظ مجرد ، والاشتراكية من دون حرية (بيروقراطية على الاشتراكية) اكثر منها (بيروقراطية اشتراكية) والحرية والاشتراكية اذا لم توضع ضمن اطار مفهوم القومية العربية وحاجات النهضة العربية وبخاصة نضال الوحدة كانا مجرد ترجمة لاطار ثقافي وحضاري لا علاقة له بالمجتمع العربي وبحاجات بناء الشخصية العربية والاجيال المؤهلة للقيام بدورها الحقيقي في المرحلة الراهنة . فالفلسفة التربوية هي جزء لا يتجزأ من الفلسفة السياسية المتمثلة بالايديولوجية العربية الثورية . والسياسة التعليمية هي تجسيد لهما . وهذا ما عبرت عنه وثائق تراث البعث بدءا من الدستور الاول عام ١٩٤٧ حتى وثائق المؤتمر القومي الحادي عشر عام ١٩٧٧ . وهكذا استطاعت فلسفة الحزب التربوية وفلسفة الحزب السياسية ان تستفيد من المذاهب التربوية التابعة للفلسفتين المثالية والمادية وان تخطو خطوة اصيلة في اتجاه تجاوزهما تجاوزا حقيقيا وليس انتقائيا . لانهما انطلقا من تركيب جديد حقق جملة من المزايا الرئيسية التالية :

١ - التخلص من الاطار الفلسفي الاطلاقي ، التجريبي ،

المذهبي ، الذي بقيت الفلسفات ، التربوية السابقة خاضعة له .
والانطلاق من نظرة شمولية تستند الى التحليل العلمي لواقع المجتمع العربي وللمرحلة التاريخية التي يمر بها . .

٢ - التخلص من ظاهرة (الاغتراب التربوي ، والاغتراب الثقافي) التي كانت تشكل عامل ضياع جديد للفكر التربوي وللفكر السياسي العربي .

٣ - تجاوز (النظرة الجزئية) الى القضية التربوية حيث الاكتفاء بالاطار القطري ، أو التركيز على جانب من جوانب العملية التربوية تلك النظرة التي كانت تضيف الى تناقض التجزئة في الحياة العربية تجزئة جديدة . .

٤ - التخلص من ظواهر (التجريد التربوي) و (المحاكاة والتقليد والتبعية) و (عزل المسألة التربوية عن المسألة القومية) وفصل المسألة القومية عن محتواها الاشتراكي والديمقراطي ، ووضع العوامل الذاتية بموضع النقيض للعوامل الموضوعية ، والفرد في وجه المجتمع . . الى غير ذلك من انواع التركيز على جانب واحد من جوانب العملية التربوية والسياسة على حساب الجوانب الاخرى .

٥ - طرح البديل للفلسفات التربوية القومية الخالصة ، والاشتراكية القطرية او الاممية ، وبلورة المفهوم الانبعاثي للإصلاح

التربوي والفلسفة السياسية وانقاذ مفهوم الفلسفة من اسر المذهبية
وجعل فلسفة الثورة العربية التربوية والسياسة ، نظاما منفتحا من
التصورات المتفاعلة مع الممارسة والتجربة ، تفاعلا حيا متطورا .

السياسة التربوية والسياسة التعليمية

كما ان مفهوم (الايدولوجية) يرتبط بمفهوم (الاستراتيجية) ،
كذلك فان مفهوم الفلسفة التربوية يرتبط بالسياسة التربوية . فاذا
كان هدف الفلسفة التربوية العربية الثورية بعث الشخصية العربية
وخلق الانسان العربي الجديد والايغال العربية الثورية . فان
السياسة التربوية والسياسات التعليمية ، لا بد ان تكون معبرة عن
المبادئ الاساسية لفكرة الانبعاث واستراتيجية الثورة العربية .
آخذة بعين الاعتبار جملة الشروط الموضوعية والذاتية المساعدة
على تحقيقها ، جنبا الى جنب مع الامكانيات المتاحة والاستعداد
المتوفر ، لابتكار وسائل جديدة وشق طريق جديد نحو تحقيق
تلك المبادئ والاهداف .

لقد أكد فكر البعث على ان (كل علم يبقى في اطار الحياة
السلبية لامة علما ناقصا) اذا لم يصبح اداة نضال . فالترقية نضال
والثقافة نضال ، (نضال مع الذات ، ومع القيم المتعارضة مع خطط
النهضة العربية) وعلى هذا الاساس فان السياسة التعليمية تأخذ

حسب هذا المفهوم معنى النضال ضد المفاهيم البورجوازية وضد
المفاهيم الاشتراكية المنحرفة (القطرية والامية) ، وضد المفاهيم
الرجعية والمفاهيم الاقليمية الانفصالية والعشائرية والطائفية المجزئة
للوامع العربي وللشخصية العربية ، والمسببة لضياعهما .

كما ان السياسة التعليمية تأخذ معنى التعبير عن (فلسفة
البطولة) التي تشكل نسيج التطور في الفكر التربوي والممارسة
التربوية والسياسة عبر التاريخ العربي . فعصر الانبعاث ، أي عهد
البطولة ، يعني (ان تكون النهضة ، وان يتحقق الاستيقاظ في كل
عواطفنا الشريفة ومواهبنا العاليه لم يعد يرضينا ان نسمع ان ذلك
الشخص وطني اذا لم يكن في الوقت نفسه انسانا ، عفيف النفس ،
كريم الخلق ، فالعاطفة الوطنية ، اذا لم تكن مصحوبة بهذه الصفات
قد لا تكون غير مجرد كره للاجنبي) .

وهذه ليست غايتنا . لسنا نطلب الاستقلال لنعزل عن بقية
الشعوب ، ونقيم سدا بيننا وبين الحضارة الانسانية ، ولسنا نصبو
الى الحرية لنعيش في التوضى ، بل لانهما وسيلة لاطلاق مواهبنا
العالية وقوانا المبدعة ، كيما نحقق على هذه البقعة من الارض التي
هي بلادنا غايتنا وغاية كل انسان - الانسانية الكاملة .

وهكذا فان السمة الاولى للشخصية المطلوب تكوينها ، في
هذه المرحلة ، هي الشخصية البطولية ، لان البطولة تشكل التسع

الذي يعيد الحياة الى العلاقة بين ماضي العرب الثوري وحاضرهم
الراهن .. والارض الخصبة التي تنمو فيها الثقافة الحية والتربية
الصحيحة . ان هذه النظرة هي التي جعلت فكر البعث يبرز اهمية
(التراث) في العملية التربوية (أي في اعادة تكوين الشخصية
العربية) . ففي محاضرة (ذكرى الرسول العربي) في كتاب في
سبيل البعث للاستاذ ميشيل عفلق تجاوز نظرتين باطلتين هما :
(النظرة السلفية) التي حولت الماضي الى صنم ، و (النظرة التقدمية
السطحية) التي هجرته كما لو انه عبء . وتأکید على منهج جديد
في فهم التراث يتقده من النظرة الشكلية الجامدة ، ويجنبه النظرة
المستخفة الجاحدة ، ويوظفه لخدمة الهدف الكبير (بعث الامة
العربية) ، كانت الشخصية العربية كلا موحدًا . اما نحن فلا نعرف
غير الشخصية المنقسمة المجزأة . وقد آن لنا ان نزيل هذا التناقض ،
فنعيد للشخصية العربية وحدتها كان اتسابنا لاجدادنا الابطال
رسميا لا اكثر . واليوم يجب ان نجعله حقيقيا مشروعا . فكما ان
اجدادنا قد عرفوا بتجربتهم الثورية في الماضي كيف يتمردون على
واقعهم ، هكذا يجب ان نجدد هذا الاستعداد . وليس غير الجيل
العربي الجديد يستطيع ان يضطلع بهذه الثورة (١) . ولكن ما هو
هذا الجيل ؟ انه جيل الثقافة الثورية والتربية الثورية . انه (٢) (جيل

(١) في سبيل البعث ص ١٢٢ .

لن يتحقق الا في نوع معين من الشباب له موقف فكري حيوي
وبطولي جديد) ..

انه (جيل يخرج من الواقع ولكنه سيكون تقيضه . سيولد
منه ويتفصل عنه ليتحد بجوهر الامة وبحركة نضالها ، وليستعيد
معها ذاتهما الاصيل) فالثقافة المنسجمة مع حاجات تكوين هذا
الجيل والتربية التي تستطيع ان تنشئه ، هما الثقافة العربية الثورية
الجديدة والتربية الثورية ، الكفيلتين بانجاز مهمات (الاتصال
والاتحاد) في علاقة الشخصية العربية بواقع الامة من جهة وبحقيقتها
ونضالها من جهة اخرى .

الاتصال من عقلية التجزئة ومصالح التجزئة ، عن قيم
التخلف وعاداته ، عن واقع الاضطهاد والاستغلال ، واكتساب
عقلية الوحدة ونفسية الوحدة ، الفكر الاشتراكي والنفسية
الاشتراكية النظرة المتحررة والارادة المتحررة ضمن اطار شخصية
مناضلة ايجابية زاخرة بالاستعداد للعطاء وبالقدرات المعطاءة . فلا
سبيل الى القضاء على القطيعة القائمة بين واقع العرب وشخصية
العرب اليوم ، وبين ماضيهم من جهة ، وحاضر العالم من جهة اخرى ،
ولا مجال لضمان المستقبل الا بتحقيق ثورة شاملة وحضارية في
الحاضر . . . ولا سبيل الى هذه الثورة بدون ثقافة وتربية ثورية . .

(٢) نفس المصدر ص ١٥٠ .

وعلى هذا الاساس فان مهمة السياسة التربوية هي مهمة ثورية من الطراز الاول ، لانه عليها ان تخلق عقلية جديدة حديثة علمية وثورية وان تخلق نفسية جديدة تستلهم المثل العليا وحاجات جماهير الامة العربية للانطلاق من قيود الواقع الذي يحبس طاقاتها وان تخلق بيئة اجتماعية ثورية جديدة .

يقظة الوجدان العربي :

لقد نص المبدأ الاول من المبادئ الاساسية للدستور الاول للبعث على ان « الامة العربية وحدة ثقافية ، وان جميع الفوارق القائمة بين ابناءها عرضية زائفة تزول جميعا بيقظة الوجدان العربي » (٣) .

وعلى ضوء هذا المبدأ ، اصبح للسياسة التربوية هدف يتجاوز الاهداف التقليدية المنبعثة عن الاطر القطرية ، كما يتجاوز ايضا حدود تكوين المعرفة وتنمية القدرات الفردية والتلاؤم الاجتماعي .. الى غير ذلك من الاهداف التي تحددها النظريات التربوية المعروفة .

لان المهمة الاساسية للسياسة التربوية اصبحت (ايقاظ الوجدان العربي وتوحيد الثقافة العربية وخلق الاجيال العربية الجديدة الموحدة في وعيها وفي استعدادها النضالي) .

(٣) نضال البعث . ج ٤ (المؤتمرات القومية السبعة الاول) ص ٢٤ .

وقد تضمنت باقي مواد الدستور الاول اشارات الى عناصر تحقيق هذه السياسة .

فالمادة السادسة ، تحدد هوية الاداة اللازمة لتحقيق (الانبعاث القومي وتحقيق الاشتراكية) ، بانها (الانقلاب الشامل لجميع مناحي الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية) ، والمادة الخامسة عشر تعتبر الرابطة القومية الرابطة الوحيدة في المجتمع العربي وتتطلع الى تكوين الجيل المكافح ضد العنصيات المذهبية والطائفية والقبلية والعرقية والاقليمية .

والمادة الواحدة والاربعين ، تنص على ايجاد ثقافة عامة للوطن العربي (قومية ، عربية ، حرة تقدمية ، انسانية) وجعل انشطة (النوادي ، والجمعيات والاحزاب ومنظمات الشباب ومؤسسات السينما والاذاعة والتلفزة ، وكل وسائل المدينة الحديثة) عملا رديفا وجزءا من العملية التربوية الكلية الشاملة لخلق الانسان العربي الذي يمتلك ثقافة عربية تساعد على تحقيق شخصيته القومية ذات البعد الانساني الحضاري وكذلك المواد ٤٤ - ٤٨ المتعلقة بسياسة الحزب التربوية التي ترمي الى (خلق جيل عربي جديد مؤمن بوحدة امته وخلود رسالتها . آخذ بالتفكير العلمي ، طليق من قيود الخرافات والتقاليد الرجعية ، مشبع بروح التفاؤل والنضال مع مواطنيه في سبيل تحقيق الانقلاب العربي الشامل وتقدم الانسانية) .

اختلاف المفاهيم والمفاهيم :

وهكذا فإن نظرة البعث الى السياسة التربوية تتلخص في كونها ينبغي ان تفهم العملية التربوية بمنظار اوسع من الحدود القطرية واعمق من النظرات الاصلاحية السطحية ، وتختلف عن المفاهيم والمفاهيم التقليدية فالسياسة التربوية ينبغي ان تصبح مصنعا ينتج الجيل الثوري الذي يتميز بالنوع عما حوله من واقع والذي يشكل (أمة الانقلاب قبل ان يتحقق انقلاب الامة) (٤) وذلك لا يتحقق الا اذا تحولت العملية التربوية ذاتها الى عملية ثورية تعالج تيار الواقع والمفاهيم المتخلفة والمناقضة لتيار الثورة .

فالتربية ليست مجرد اعداد للحياة النضالية ، بل يجب ان ترتبط بالحياة النضالية وان تكون جزءا اساسيا منها واهم ركن من اركانها .

وإذا كانت الوحدة هي قبل كل شيء (تفكير انقلابي وعمل نضالي كما يقول القائد المؤسس للبعث فان السياسة التربوية مطالبه بان تنشيء (الجيل العربي الجديد الذي يستمد قيمه من امكانات الامة العربية للكامنة لا من الواقع المريض) وهو الذي يملك (عقلية الوحدة ونفسية الوحدة) (٥) أي (خلق التفكير والنضال المناقضين لحالة

(٤) في سبيل البعث (البعث العربي والانقلاب) عام ١٩٤٩ ص ٦٠ .

(٥) ميشيل عفلق (معركة المصير الواحد) ط ٥ ص ٤٤ .

التجزئة ولما اورثته التجزئة واصطنعته من عقلية وعواطف ومصالح واطراف سياسية واقتصادية واجتماعية داخل كل قطر من أقطار الامة) .

وهذا يعني ان هذه السياسة التربوية لا يمكن ان تحقق على وجهها الصحيح الا على ايدي مربين مناضلين مؤمنة بالوحدة يشقون طريقهم كرواد وتتوفر فيهم صفات الابطال الذين يعطون للريادة معنى الرسالة ويتفاعلون مع ظروف النضال القومي تفاعلا بطوليا . فالتكسبات دروس وحوافز لبناء الاجيال الجديدة على أسس اعتمق ثورية واكثر نضوجا ، لان الثورة (علم وتخطيط وتنظيم ومراحل وارتفاع مستمر الى مستوى العمل التاريخي) وكذلك السياسة التربوية والعملية التربوية فانها الجزء الاعمق والاكثر اتصالا بمستقبل العمل الثوري لذلك فهي تستمد من الثقة بالامة وجماهيرها ومستقبل نجاح قضيتها ، اساس توجهها لتفجير الطاقات الجديدة في المجتمع العربي ، وتعزيز القدرة على النهوض والتجدد والصمود .

فالسياسة التربوية لا بد ان تربط العملية التربوية بحاجات ومتطلبات المعركة المصيرية الدائمة والصاعدة مع العدو الامبريالي الصهيوني .

أي بالحاجة الى ثورة ثقافية مستمرة وصاعدة . وهكذا فان

منظور البعث للسياسة التربوية الذي هو منظور علمي ثوري منبثق من ايدولوجية العربية الاصيلية ، يتميز باحاطته بكل ابعاد العملية التربوية وبالعلاقة الجدلية بينها وبين الحياة النضالية للامة .

اهداف اساسية :

وقد جاء التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ليرسم للسياسة التربوية للقطر العراقي في المرحلة الراهنة ، اهدافها المرحلية الاساسية كجزء من هذا التطور الشامل وهي :

١ - وضع التحولات الاجتماعية والثقافية في نسق واحد مع التحولات الجارية في الميادين الاخرى •

٢ - تسريع التحولات الاجتماعية والثقافية بالسرعة والجدرية والشمول الذي يطرح اليه الحزب وتتطلبها مهماته واهدافه القومية والاشتراكية والدور المطلوب ان تؤديه التجربة الثورية في القطر العراقي في حركة الثورة العربية •

٣ - اعداد مناهج دراسية جديدة بدءا من رياض الاطفال ووصولاً الى التعليم الجامعي ، موضوعة على ضوء مبادئ الحزب والثورة القومية والاشتراكية والديمقراطية •

٤ - التصفية الجذرية والشاملة للافكار والاتجاهات الرجعية وانبورجوازية والليبرالية الموجودة في مناهج التعليم وفي اجهزته •

٥ - تحسين النشء الجديد تحصينا فكريا وثقافيا ضد اي تيار او اتجاه فكري او ثقافي لا ينسجم مع مظاهر امتنا العربية واهدافها الاساسية في الوحدة والحرية والاشتراكية •

ان نظرة الى المسافة الزمنية التي انقضت بعد المؤتمر القطري الثامن ، تكشف لنا عن الخطوات التي تم انجازها خلال السنوات الاربع المنصرمة ، والخطوات التي هي قيد الاعداد ، من أجل وضع العملية التربوية في هذا القطر على طريق (الثورة السياسية الدائمة) والثورة (الثقافية الدائمة) النابعة من حاجات نضالنا القومي واهداف ثورتنا العربية •

الثورة الثقافية

محاضرة الموسم الثقافي
لوزارة الثقافة والفنون

١٩٧٨-١-٢٨

« الثورة الثقافية » اصطلاح جديد « كالتسيير الذاتي »
اصبحت له جاذبية ، ولقى رواجاً في لغة الثورات والتجارب الحديثة ،
واصبح من مفاتيح الفكر المعاصر . وهو يذكرنا بأهمية الكلمة
ودورها في التاريخ : (الحرية) ، (السيادة) ، (العدالة) ،
(الاشتراكية) ، (الديمقراطية) ، (التوحيد) ، (المساواة) ،
(المحبة) ، (الرسالة) . . . كلمات كان وما يزال لها سلطان ، لانها
عبرت عن جوهر الانسان وكانت رمزا لمراحل اجتماعية جديدة
فضجت ظروفها وعواملها وفكرتها ، فجاءت فيها العبارة اشبه
بالشرارة ، وارتفعت الكلمة الى مستوى الآية .

ان (قوة الكلمة) هي التي أوحى لشاعر المقاومة الفرنسي
(بول ايلوار) Paul Eluar قوله « وبقوة كلمة ، اتابع حياتي
من جديد ، تلك الحياة التي كاد ان يقطعها اليأس » .

والثورة الثقافية ، في ظل السياق الراهن لتطور الثورات في العالم ، تأخذ معنى (حماية) الثورة قبل ان تأخذ معنى (تجديد الحياة الثورية) ، ودخول (الفكر الثوري والعمل الثوري) مرحلة جديدة متقدمة متكافئة مع التقدم العلمي والخبرة المتراكمة للممارسة الثورية . فهي بالدرجة الاولى تكافؤ مع الاخطار المصيرية التي تتعرض لها الثورات الحديثة .

ولئن كان اصطلاح الثورة الثقافية ، حديثا ومقترنا في الاذهان باحداث الصين (اعوام ١٩٦٦ - ١٩٦٩) ، فان المعاني التي يدل عليها قديمة ، وجذورها التاريخية تصعد الى نشأة الحضارات والديانات وغيرها من (القفزات الكبرى في الوعي وفي التطور التي شهدتها التاريخ البشري) .

فعندما يشير المفكر (روجيه غارودي) في كتابه الاخير (في سبيل الحوار بين الحضارات) ، الى كلمة (بول فاليري) عن اوربا بأنها (القارة التي صهرت من معادن ثلاثة) (التقليد اليوناني) في مجال الفكر والفنون ، و (الحقوق الرومانية) ، ثم (القيم المسيحية الخلقية) ، يتساءل غارودي بحق : ولكن هل يسكن ان تقطع هذه التيارات عن نيايعها ؟ ، ثم يتابع قائلا : (ان الغرب قد ولد في آسيا و أفريقيا ، وبوجه خاص من حضارتي بلاد ما بين النهرين ووادي النيل) وان ما يدعيه الغرب لنفسه من فكر ، ومن حالة ذهنية تميزت باتجاهها نحو (السيطرة على الطبيعة) ، ونحو (اسباغ

الطابع العقلاني على الحياة) ، ليس في رأي المفكر غارودي سوى امتداد لتلك النظرة الى العالم التي انضجتها الحضارة الاولى للبشرية على حوض دجلة والفرات .

فقبل (الالياذة) الياذة هوميروس اليونانية ، بألف وخمسمائة سنة ، وقبل ان يكتب الشاعر الالماني (جوته) رائعته (فاوست) بنيف وخمسة آلاف وثمانمائة سنة ، تزيج ملحمة كلكامش الستار عن (اول أثر فكري تاريخي ينطوي على مفهوم الانسان الذي يتحدى الموت ، ويسيطر على الطبيعة ، ويحارب انداده ، ويذود عن حياضه ، ويتوقد بتعطش نهم الى المعرفة) . فعندما يسأل الاله (شمش) كلكامش : « لماذا تحاول المستحيل » ؟ يجيبه قائلا : اذا كان المجهول ينبغي ان لا يرتاد ، فلماذا ايقظت في قلبي الرغبة القلقة التواقفة اليه ؟ . ثم ان كلكامش يضيق ذرعا بالافق الضيق للمدينة ، فيتطلع خلف اسوارها ، ولكن عينه تصطدم بجدار آخر يرسمه الافق ، انه يفتش عن معنى لحياته خارج جدران (المدينة) التي يتعلم فيها الانسان كيف يعيش ، ولكنه لا يتعلم معنى الحياة ، فيموت كمدا منقبض القلب) . ان انضاج مثل هذه المفاهيم عن الانسان والقدر ومعنى الحياة ، قد كان بمثابة ثورة ثقافية في عالم الانسان فالحضارات البشرية والديانات الانسانية كانت وثبات رائعه في مسيرة التطور البشري .

لذلك فان (الثورة الثقافية) بمفهومها العام تعني (انضاج النظرات والمواقف التي تصعد بالانسان وثورته وبالمجتمعات وتحولاتها ، نحو آفاق حضارية وانسانية اكثر تقدما) ، وبهذا المعنى فان في تاريخنا القديم ، والموغل في القدم ، ثورات ثقافية ، خلقت من امتنا العربية شخصية حضارية متجددة منفتحة على العالم ، ومشاركة في مسيرته التقدمية ، جنباً الى جنب مع الحضارات والثورات الثقافية التي تعاقبت في التاريخ لدى الامم الاخرى .

وعلى هذا الاساس ، فنحن مدعوون منذ البدء ، الى التمييز بين الثورة الثقافية (كظاهرة تاريخية نضالية) وبين (نظريات) الثورة الثقافية كأيديولوجية تمهد عادة ، للتحويلات الكبرى الحاسمة في المجتمع . فتاريخ البشرية يؤكد حقيقة اساسية : وهي ان الثورة ليست صدفة ، وليست مجرد حادثة ، وليست حادثة استثنائية ، بل هي المسيرة الموضوعية الطبيعية للتاريخ القائم على الصراع ، وان (الثورات الثقافية) انما هي بمثابة تجديد ، وتعميق وتطوير لتلك المسيرة . وانها مع تطور دور الثقافة والمعرفة وتطبيقاتها ، ومع تصاعد جدل الثورة والثورة المضادة ، في العالم المعاصر ، اصبحت الطابع الملازم للثورات وللثقافات .

ان تعريف (البرتومورافيا) للثورة الثقافية (بأنها تعني ما يدل عليه مبنائها اللفظي ، من انها ثورة لم تندلع بدايتها على

المستوى الاجتماعي ، وانما اندلعت على صعيد البناء الفوقي) انما يلخص (ثورة « ماو » الثقافية) التي اخذت بالدرجة الاولى معنى التعبير عن شخصية (ماوتسي تونغ) ومكوناته الثقافية التي كشفت الدراسات التي قامت بتحليل مؤلفاته المختارة ، ومنابع ثقافته ونوعية المراجع والنصوص التي يعتمد عليها ، عن النسب التالية (*) :

- ٢٤٪ ستالين
- ٢٢٪ الكونفوشيوسية
- ١٨٪ لينين
- ١٣٪ ادب وقصص فولكلورية
- ١٢٪ نصوص من الفلسفة (الطاوية) (*)
- ٧٪ كتاب صينيون واجانب
- ٤٪ ماركس وانجلز

فاذا كانت هذه المكونات الثقافية المتعددة المصادر التي تكمن وراء الحركة الجدلية لفكر ماوتسي تونغ ، هي التي جعلت من

(*) انظر المراجع على الصفحة الاخيرة .

(*) انظر المراجع على الصفحة الاخيرة .

(الثورة الثقافية) وسيلة لطبع الثورة الصينية بطابع هذا الفكر*)
فان تجاوز المنظور الجزئي للتجربة الصينية ، والتسلح بنظرة علمية
ثورية الى العلاقة بين البنى الفوقية والبنى القاعدية ، يسمح لنا بأن
نتبين ما هو جوهرى وما هو شمولى في كل ثورة ثقافية : وهو (كونها
تفتح التجارب الثورية على حركة جدلية دائمة) ، بتصديها المبكر
والشجاع للظواهر المرضية التي تعيق انطلاقها وتشوه مسيرتها .
فالثورة الثقافية اذن ، عودة الى المبررات الاساسية للثورة ،
ونفض الغبار عن فكرها وممارستها ، وتعزيز لدور الفكر والثقافة
في الثورة .

انها ثورة في الوعي والضمير والحياة ، على كل ما لحق
بالوعي الثوري وبالضمير الثوري وبالحياة الثورية من شوائب
وزيف وعلل يمكن ان تستغل كمطية للثورات المضادة .

وهكذا ، فان مفهوم الثورة الثقافية ينطوي على مفهوم
(العودة الدورية) الى اصالة المنشأ وحرارة البداية ، والى العفوية
التي تحرر ارادة الثورة من العادات والنمطية الالية ، وتجعل
حياتها شفافا ونظيفة ، والى الجماهير للتزود منها بدماء جديدة

*) الطاوية هي الديانة الصينية اليابانية القديمة التي كانت
تمجد الليل لانه يوحد العالم . في حين ان النهار يكشف
الانقسام . خلافا للمعتقدات التي كانت تعتبر النهار رمزا
للنور والخير . والليل رمزا للظلمة والشر .

وعطاءات نضالية ، ودفعها نحو مشاركة اوسع واقوى في حماية
الثورة ودعمها وقيادتها .

وعلى ضوء ذلك يتبين ان مفهوم الثورة الثقافية ينطوي على
معان جديدة للثقافة وللثورة ، وللعلاقة بينهما . فالثقافة والثورة
يندمجان في بوتقة انصهار واحدة فلا تعود الثقافة مجرد (بنية
فوقية) ، بل تغدو الارض والاصل والاساس لكل وجود فوقى
(سياسي وايدولوجي) ، ولكل وجود قاعدي (اقتصادي
اجتماعي) لانها تصبح عملية ولادة جديدة وسلاحا قوميا
وطبقيا وحضاريا ، في يد انسان وطلائع واجيال نائرة . فالثورة
الثقافية تهدف الى ان تجعل من الثقافة (اداة انبعث للثورة) تربطها
بالحركة الجدلية لنضال الامة وتطور المجتمع . كما انها تجعل من
الثورة طاقة متدفقة تهدم اخطاءها بنفسها ، وتنطلق مزودة بطاقات
متنجرة جديدة (تربط الثقافة بالحركة المبدعة للثورة) .

اما نظريات (الثورة الثقافية) ، فقد اخذت لدى (كارل
ماركس) معنى التنبيه للمعيقات التي تعترض مسيرة الثورة وللعناصر
التي تريد ايقاف الثورة وجعلها تراوح في مكانها ، والعمل على
دفع الثورة حتى النهاية والاعتماد على القوى الثورية التي تتمسك
بايدولوجية الطبقة العاملة وتعمل على تحقيق رسالتها .

في حين اخذ مفهوم (الثورة الثقافية) لدى (لينين) معنى

(الثورة اللامقطعة) التي تعبر عن قانون تاريخي موضوعي ،
(هو قانون تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية) .

اما لدى (تروتسكي) مبتكر الصيغة النظرية (للثورة
الدائمة) ، فان مفهوم الثورة الثقافية يتضمن (امكانية حرق
المراحل) خلال حقبة غير محددة من الثورة الاشتراكية ، (يغير
فيها المجتمع جلده باستمرار) .

في حين ان مفهوم الثورة الثقافية لدى (ماوتسي تونغ) يأخذ
معنى (الثورة المستمرة) من منظورين :

- أ - كون الثورة تنطوي على تغييرات نوعية لا متناهية .
- ب - كونها لن تتوقف ابدا .

اما في حزبنا ، حزب البعث العربي الاشتراكي ، فقد جاء
مفهوم الثورة الثقافية معبرا عن (طبيعة النهضة العربية) وعن
قوانين التحول الموضوعي للحياة العربية في هذه المرحلة التاريخية .
فحالة الامة العربية في مرحلتها التاريخية الراهنة هي (حالة ثورية
دائمة) لانها في حالة صراع مصيري طويل . ونظرية الثورة الثقافية
لا تفصل عن مسيرة الثورة العربية . فالنظرية والمسيرة كلاهما
وجهان متداخلان ومعبران عن حقيقة موضوعية متحركة ونامية
ومتغيرة ، هي (النهضة العربية) ، التي هي حالة صراع يتداخل
فيها العاملان الداخلي والخارجي . فالثورة والثقافة كلاهما

يستمدان معناهما الحقيقي من صلتها المباشرة بهذا الصراع .
لان المخطط المعادي للثورة العربية هو بمستوى (المؤامرة الدائمة) .
والجواب عليه لا يمكن ان يكون الا بمستوى (الثورة الدائمة) ،
لذلك فان الثورة الثقافية في الوطن العربي ، لا يمكن تصورهما من
خلال حدث يحدث وينتهي كل شيء ، بل هي (مسيرة تنطلق من
استيعاب كامل لقانون موضوعي ، هو قانون (ديسومة الثورة) .
فالثورة الثقافية كما تفهما ، ليست مسألة نظرية ، وليست حتى
(مسألة تشوير الثقافة) ، بل هي مسألة الاغناء المستمر لمعطيات
الوجود الثوري . أي للفكر الثوري والبنية الثورية والعلاقات
الثورية والفعالية الثورية وبكلمة واحدة (انتاجية الثورة) ، على
الصعيدين ، الذاتي والموضوعي ، القومي والقطري ، الاجتماعي
والحضاري . فأمام آثار الظاهرة الاستعمارية التي ما تزال ذبولها
حتى الآن ، ماثلة في الافكار وفي الممارسات . والتي اشار (فرانز
فانون) في كتابه عن (الثورة الجزائرية في عامها الخامس) الى عمق
تأثيرها بقوله : (الاستعمار يشوه الطبيعة الانسانية ويقنع الانسان
المستعمر من جذور ثقافته ويسلبه استلابا كاملا) . وكذلك امام
مخلفات مرحلة الانحطاط والتجزئة والتخلف ، في ظل بنية طبقية
تضع جماهير الامة في صف نضالي والطبقات المستغلة مع الامبريالية
والصهيونية في صف آخر ، لا يمكن للثورة العربية الا ان تكون
(ثورة ثقافية دائمة) ، ثورة في الاعماق تجدد المجتمع وتبذل

الانسان وتخلق الامة خلقا جديدا . فالثورة هي بمثابة الاوكسجين الذي ينعش بذور الحياة الجديدة على الارض العربية ، وكلما قل الاوكسجين وظهرت التشوهات ، كانت الثورة الثقافية عملية انعاش جديدة ، وتنقية للمناخ الثوري . ومن هذا المنطلق ، كان مفهوم البعث العربي الاشتراكي (للثورة) مفهوما ثقافيا ، فهي لا يمكن ان تكون الا (ثقافية) تحمل نظرة جديدة الى الواقع وتمتلك القدرة المتجددة على تغيير بنية هذا الواقع تغييرا حاسما ، وعميقا ، وحضاريا ، كفيلا بحل تناقضات المجتمع العربي ، وتحقيق شروط الانبعاث القومي . وعلى ضوء هذا المفهوم للثورة تأخذ (الثقافة) معنى الثورة المتجددة ، ومعنى السلاح ، فهي جزء من الكفاح المسلح وهي (نضال مع النفس ومع الفكر ، لكي يعيد النظر في الامور الاساسية) ويبعث الشخصية العربية من جديد .

أما الاسس التي قامت عليها (نظرية الثورة الثقافية) في البعث ، فتلخص ، على ضوء دراسة تراث الحزب في المبادئ والمنطلقات التالية : -

(١) النظرة (البطولية) الى الانسان . فقطع الصلة بمرحلة الانحطاط لا يكون الا ببدء عهد جديدهو (عهد البطولة)^(١) . والبطولة هي التجسيد الحي لمفهوم الثورة الدائمة على (مستوى

(١) ميشيل عفلق ، في سبيل البعث (عهد البطولة) .

الذات) . (فالثورة الثقافية) التي تتطلبها المرحلة الراهنة من حياة الامة هي خلق الجيل (البطل) . اي الجيل الذي يجسد في ذاته وفي نضاله . الصلة بمعاناة الامة بديسومتها وصيرورتها ، فتصبح حياته معبرا جزئيا عن معاناة الامة (تقترن فيها الشجاعة في محاربة العدو الظاهري بمحاربة العدو الباطني) وتصبح خطأ مستقيما واضحا ، لا فرق بين باطنها وظاهرها ، ولا تناقض بين يومها وامسها . فالبطل يتحول من (مجرد فرد) الى عضو في منظمة انقلابية تصنع الابطال ، والى انسان يرتفع الى مستوى (الرمز) .

(٢) (النظرة الحية الى الثورة والى الحزب)^(٢) . النظرة القائمة على رفض (النظرة الجامدة والقوالب والصنمية) . لان الحركة الحية ، كما يقول الاستاذ ميشيل عفلق (لاتعرف التوقف ، وتيار الحياة تيار مبارك طاهر مهما تكن الشوائب التي تعلق به) وحركة الانبعاث ، ينبغي (ان تكون كالبحر لا كالساقية الصافية التي لا تروي أمة ولا تصنع تاريخا) فالعنوية والحرية والاصالة - اساس حركة الابداع والخلق - ينبغي ان تشكل جوهر الحركة الثورة . لذلك فان الحركة مطالبة باستمرار بأن تنتبه الى الخطر الذي يسببه (طغيان الشعارات

(٢) نفس المصدر (النظرة الحية الى الحزب) .

التقليدية والالفاظ) لانها (تصبح مهددة بأن تتحول الى صنم وافكارها الى اصنام ، فتتردى في السطحية والتقليد ، ويضعف فيها التوتر والصراع) .

(٣) (النظرة الجدلية لتاريخ الامة العربية) ، فلا استعداد الدائم الى التجدد والثورة ، وتجاوز الاوضاع المعيقة ، وقبول التحدي والولادة الجديدة ، عملية مستمرة في التاريخ العربي . فهذه الامة^(٣) ، (التي افصححت عن نفسها وعن شعورها بالحياة افصاحا متعددًا ، متنوعًا ، في تشريع حمورابي ، وشعر الجاهلية ، ودين محمد ، وثقافة عصر المأمون ، فيها شعور واحد يهزها في مختلف الازمان ، ولها هدف واحد بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف ، فالامة الحية تنمو وتتكامل ، ويكون ماضيها مهما سما دون حاضرها ، ويكون مستقبلها أمامها لا وراءها ، فللامة دوما رسالة لم يكتمل اداؤها بعد) .

(٤) مفهوم (السيطرة على الزمن)^(٤) . فالمشكلة الرئيسية بالنسبة الى العرب هي ان يمثل نزوعهم الى التخلص من الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والنفسية التي

(٣) نفس المصدر (حول الرسالة العربية) وذكرى الرسول العربي .

(٤) نفس المصدر (الحركة الفكرية الشاملة) و (المستقبل) .

تطبع واقعهم ، في حركة تستطيع ان تسيطر على الظروف ، واول ما يمكن ان يذكر من شروط لهذه الحركة هو ان تكون من الناحية الفكرية في مستوى القضية التي تحاول حلها) وان (يتحقق الانقلاب العربي المنشود منذ الآن في الجيل العربي الجديد ، فلن نقول للعرب انكم ستصلون الى الحياة الموحدة الحرة الاشتراكية في المستقبل ، وانما نقول لهم هذه صورتها منذ الآن ، عندها يأتي المستقبل لنا وينمو فينا ، ولا يعود شيئًا منفصلا وخارجا عنا) .

(٥) (النظرة الانقلابية الشاملة)^(٥) ، النظرة التي (تربط الانقلابية بقانون الصراع) ، وتتوجه (الى الجماهير الكادحة والى الشباب) وتؤكد على (الاعتماد على الذات) ، وعلى (القيم الاخلاقية) المنبعثة من حاجات النضال وقوانينه العامة الاساسية (فلا انقلاب بدون صراع ، كما يقول القائد المؤسس للبعث ، ولا يمكن محاربة الاوضاع المفروضة على الامة الا من خلال الذين يتمسكون بها ويستفيدون منها ، فالانقلاب هو صراع ضد الاوضاع وضد العقلية والخلق والمصالح السائدة . والامة لم تقطع بعد مرحلة الصراع الذي يحرق

(٥) نفس المصدر (الصلة بين العروبة والحركة الانقلابية) و (خبرة الشيوخ واندفاعات الشباب) و (الايمان) و (الحركة الفكرية الشاملة) .

فكرها وبزيل التشويه عن روحها) . فطريق النهضة ، طريق الثورة (طريق طويلة ، وكلمة السر التي تبقى على صحة الطريق ، هي الضريبة العادلة التي ينبغي ان تدفعها الامم من اجل ان تنتقل الى الحالة السوية السليمة ، المتمثلة (بالعاقبة والام وبالثقة بالنفس والاعتماد على الذات) ، حتى تتمكن من اكتشاف (حقيقتها الانسانية) . وكلمة السر هذه هي التي جعلت التوجه ، الى (الشباب) اساسا من اسس انطلاقة البعث (لان صفات الشباب ، ومميزات الشباب ، هي وحدها المتلائمة مع حاجات امتنا المتخلفة للبعث وللنهوض) ، ولان (الثورة بطبيعتها ذات روح شابة) ، ولان الشباب هم الذين اوصلوا بثقافتهم ونضالهم ، فكر البعث الى الجماهير الكادحة التي تشكل المادة الاساسية والعنصر الاساس في ثورتنا) ثم ان (الحركة التي تستند على المصلحة المادية والمعنوية للشعب ، لا بد ان تكون منفصلة عن الفئات والقوى التي تدعم الاستعمار والاستبداد ، وان يكون المجندون في هذه الحركة بصورة طبيعية بعيدين عن الاستغلال ، يفضلون حياة المبدأ على التمتع بالعيش الذي ما زال محرما على الاكثرية الساحقة من الشعب) .

(٦) انضاج معايير للعمل الثوري قائمة على جملة قوانين اساسية للثورة الثقافية ، أهمها :

آ - قانون العودة الى الجماهير (فالجماهير هي المرجع الاخير) (٦) و (تصحيح النواقص والاختفاء في العمل الثوري ، والتخلص من الامراض ، لا يكون جديا وصادقا الا بضمانة من وعي الجماهير ومراقبتها ومشاركتها ومصارحتها بالحقائق) .

ب - قانون العودة باستمرار الى مبرر نشأة الحركة الثورية (٧) .

ج - قانون المراجعة الدائمة واستخلاص دروس التجربة الثورية وممارسة النقد الذاتي ممارسة حية وجريئة ، والتمسك بالمقاييس الثورية وملاحظة مدى الابتعاد عن التزامها والتقييد بها ، واعتبار تطوير اساليب النضال الشعبي مهمة ثابتة .

د - قانون (التصدي الدائم للنزعات التسلطية والاساليب البيروقراطية ومنطق الوصاية الفوقية على الجماهير) والتنبه الدائم الى ان الحركة العربية الانقلابية ، تجد نفسها في كل مرحلة من مراحل تطورها على مفترق طريقين ، فأما ان تكتفي بالخطوات التقدمية التي تحققت ،

(٦) ميشيل عفلق (نقطة البداية) - (الجماهير هي الضمانة) .

(٧) المصدر نفسه (نقطة البداية) .

واما ان تفيد من النصر النسبي لترفع مستوى وعيها
ووعي الشعب ، ومستوى نضالها ، فتبقى حريصة
على الاهداف الكبرى كاملة وواضحة ، وتوضح
للشعب باستمرار ، المسافة التي ما زالت تبعده عن هذه
الاهداف (٨) .

تلك هي الاسس التي قامت عليها نظرة البعث الى ثورته ،
ثورة الامة العربية ، وعلى ضوئها يتبين ان البعث ولد (ثورة ثقافية)
مستمرة ودائمة . فالبعث يصعد بلا انقطاع نحو حقيقته ، فهو
عملية تجاوز وتجدد وابداع ، وثورته مسيرة لا تنقطع ، حتى
يتحد اتحادا كاملا بذات الامة ورسالتها وبروح العصر الذي يفتش
بدوره عن حضارة جديدة .

ولم يكن البعث في تصوره هذا سوى الترجمة الامينة لواقع
(سياق تاريخي حضاري) تمر به الامة العربية وشعوب العالم
الثالث التي عرفت (الاستلاب الكلي للشخصية) جراء ظواهر
الاستعمار والتخلف والتجزئة . والتي اصبح النضال بأوسع
ساحاته واعتم صورته ، قدرها الوحيد لاستعادة حيويتها
وقدرتها على النهوض والمشاركة الجديدة في مصير العالم .

فأمم القارات الثلاث ، وتجاربها القومية التحريرية المعاصرة ،

(٨) تطور الفكر الاشتراكي للبعث - ص ٤٤ .

وجدت نفسها امام ارث معقد من الظواهر يتطلب سلسلة من
الثورات المتداخلة والمتتابعة والمستمرة . ويحتاج الى حركات ثورية
تعرف كيف نكتشف امكانية استعمال المخزون التراثي من
الاستعداد الثوري ، وكيف تضع القديم في خدمة انجاز ثورة
عصرية ، والغاء القطيعة بين العالمين المتراصين داخل مجتمعاتها ،
والعصور المتباعدة المستقرة داخل ذاكرتها ولا شعورها .

فالثورة الثقافية في الوطن العربي ، وفي بلدان العالم الثالث ،
عملية مصرية تلبية حاجات التحول التاريخي المعقدة والمتشابكة .
وليس في مثل ظروف حياة الامة العربية ومرحلتها الراهنة ما يؤكد
هذه الحاجة .

فلنتوقف عند اللحظة القومية الراهنة ، ولنتبين ملامح الثورة
الثقافية التي نحن بحاجة اليها اليوم ، والتي يتزايد الشعور
بضرورتها مع تسارع الاحداث على المسرح السياسي .

لنتوقف عند ما حدث أخيرا في مصر . فقبل سنتين ، أي بتاريخ
١٠/١١/١٩٧٥ ، كما هو معروف ، صدر قرار الامم المتحدة بادانة
الصهيونية كحركة عنصرية ، وكان هذا القرار بمثابة يقظة في الوعي
والضمير العالميين . وكان يفترض بأن يكون هذا القرار نقطة انطلاق
من اجل نضال عالمي يساند الحق العربي ضد الكيان الصهيوني
العنصري المغتصب . ولكن ماذا حدث في ١٩/١١/١٩٧٧ اي بعد
سنتين فقط ؟

يصاب هذا الوعي والضمير العالمين بصدمة ليس لسرعتها
مثيل في التاريخ ، فقد احدثت عملية السادات
دهشة وفرحا لا مثيل لهما داخل الكيان الصهيوني وفي الاوساط
الامبريالية التي استغلتها باتجاه معاكس لمعنى قرار الامم المتحدة .
فكيف نفسر هذا (اللامعقول) الذي يجري على الارض العربية ؟

نحن هنا ، في الوطن العربي ، كنا اقل دهشة فجماهير امتنا
كانت تراقب انكشاف مؤامرة التسوية المتسارع ، وتدرك لعبة
الترويض التي مورست بحقها ، فلم تكن تلك العملية المسرحية
بالنسبة اليها سوى فصل معلن جديد من مسرحية التآمر التي
تجري معظم فصولها في الخفاء وبيطاء شديد ، يساعدان ابطالها
على القيام بادوارهم في غفلة عن الجمهور ، وعن رد فعله المباشر
العنوي الثوري .

فخطوة السادات لم تكن اذن مجرد حادثة ، بل هي كاشف
عن مستوى الانهيار الذي أصبح يستفز الضمائر ، ويتحدى
العقل العربي ، ويؤكد الحاجة الى (ثورة ثقافية) تخرج الحياة
العربية من هذا الوادي الفارق بالآثام .

فالجريبة هنا محطة على طريق ، والمجرم ليس فردا واحدا او
نظاما بمفرده ، بل نفر وفئات وطبقات وانظمة ، تسير في قافلة الردة
المعاكسة لخط النهضة العربية والاتجاه العام للتطور البشري .

ولئن كانت مصر العربية ، هي القطر الذي شهد الحدث ،
فانه ليس حدثا قطريا ، فحدوده ومعانيه تمتد على الوطن العربي ،
وتمس جوهر قضية النضال العربي في المرحلة الراهنة : حكام
واحزاب ومثقفون وقادة ، كانوا بالامس محسوبين على الثورية
والتقدمية ، أصبحوا هم اليوم ، يتصدرون المسيرة الرجعية المتواطئة
مع الامبريالية والصهيونية ضد الثورة العربية واهداف النضال
العربي ، فالكسة (شاملة) والجواب عليها لا بد ان يكون شاملا ،
وهي (عميقة) ولا بد ان تستوعب اولا ، حتى يخرج الحل العميق
الشافئ من الداخل ، فهي تعبير عن انحراف خطير يأتي محصلة
لانواع من الخلل (الفكري والنفسي والتربوي) ، بعضه ورثناه
من مرحلة الانحطاط والاستعمار ، وبعضه الآخر يأتي على شكل
مكافآت لاعداء الثورة العربية نتيجة تخطيط بعيد ،
وتآمر مكثف ، وجهود لا تكل ، تستند الى مراكز للبحوث تعمل
بدأب شديد وتخطيط علمي جهنمي ، لتحطيم الشخصية العربية من
داخلها ، وتمزيق المجتمع العربي ، وضرب الانطلاقة العربية التي
شهدت اروع ملامحها واكثرها ايلاما للعدو ، وتهديدا لكياناته
واطماعه في الوطن العربي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، في ميلاد
البعث وثورة عبدالناصر وثورة الجزائر ووحدة سورية ومصر ،
وانطلاقة الكفاح المسلح والثورة الفلسطينية ، وثورات العراق في
١٤ تموز و ١٤ رمضان ، واخيرا ١٧ تموز ، التي ارتفعت الى

مستوى جديد في الفكر والتخطيط والممارسة الثورية ، وفتحت آفاق هذا القطر المناضل على عملية ثورة ثقافية مستمرة .

فالثورة الثقافية التي نحتاجها اليوم هي من اجل ان نتابع الصمود وان نعالج انواع الخلل التي استغلتها المؤامرة الدائمة على القضية العربية للاحاق الاذى بالامة العربية ، وانواع الخلل الرئيسية هذه يمكن ان تحصر في ثلاثة :

أ - الخلل في (النظرة الى العدو) ، فنحن نواجه عدوا له ايدولوجيته وممارساته المعروفة على مدى قرن بكامله . ومن يجهل كيف تفكر (الحركة الصهيونية) وكيف تخطط وما هي قيمها ، وما هي اساليب تنشئتها للاطفال في (الكمبيوتر) وما هي نظرتها الى الشخصية العربية ، لا بد ان يوقعه جهله ، حتى ولو كان بريئا ، في مخطط العدو . فكيف اذا رسم له صورة معاكسة لطبيعته وراح يتصرف معه ، لا على اساس الخديعة الكاملة ، بل على اساس الخيانة الكاملة ، فلا يكتفي بأن يطلب السلام والامان والرفاه ، من السفاح الغاصب الطامع المعتدي ، بل انه يتبنى قيم العدو ويصبح معه في صف واحد .

فالمسألة هنا لا تعود (مسألة فكرية) ، ومسألة (جهل) او تجاهل حسب ، بل هي مسألة (خلل نفسي وتربوي) اي

خلل في بناء الشخصية مصدره الرئيس هو (الثقافة الاستعمارية) و (عقلية الانحطاط) الموروثة عن مرحلة الانحطاط .

ومثل هذا الخلل لم توله الحركات الثورية في الوطن العربي ، في المرحلة السابقة ، اهتماما كافيا ، ولم تركز على معالجته التركيز المطلوب . فبقي احتياطيا للردة كامنا في داخل الثورات نفسها .

وهذا هو اول مبرر للثورة الثقافية التي نحتاجها اليوم .

ب - الخلل في (النظرة الى الذات) ، فنحن اليوم ، وفي ظل مرحلة التحدي المصري مع عدو متبلور الهوية ، لا يمكن ان يتغير بالايحاء وبالعوطف وبقدرة ساحر ، لا يمكن ان تكون نظرتنا الى ذواتنا صحيحة الا من خلال معطيات هذا الصراع المصري والحضاري .

ففي تموز ١٩٥٩ ، كتب (فرانس فانون) يقول : (ان الجزائر القديمة قد ماتت . ان مجتمعا جديدا ولد على الارض الجزائرية . ان كل هذا الدم البريء الذي تدفق غزيرا في الشرايين على ارض الوطن . قد عمل على انهاض انسانية جديدة) .

ان الدم العربي ، دم الشهادة ، الذي تدفق في الجزائر
وفي مصر وسورية وعلى ارض فلسطين ، هذا الدم قد حدد
هوية جديدة للوطن العربي ، هوية الانبعاث والنهضة ، ولا
يستطيع ان ينال من هذه الحقيقة او يقلل من شأنها احد .

فعروبتنا كسب موروث لم تعد شرعية الا بمقدار ما
نكتشف المعنى النضالي لها ، فتتابع الطريق الذي سلكه
شهداء امتنا ومن يتكذب عن هذا الطريق فليس بعربي ، مهما
كان لسانه ولونه وسجل نفوسه .

فعروبتنا الموروثة ، لغة وتاريخاً وحضارة ، هي امانة
لا نكون جديرين بحملها ولا نستحقها الا عندما تأخذ هويتنا
القومية معناها الانقلابي ، معناها التحرري الوجدوي
الاشتراكي . فاذا لم تصل نظرنا الى ذاتنا القومية الى مستوى
القدرة على التمييز بين (لا شرعية) عروبة من يحمل السلاح
ضد القضية العربية ، ومن يفرض بها ويساوم عليها ويعترض
طريق نضالها ، وبين (الانتساب الحقيقي النضالي) الذي
يخلق الفكر المناضل والشخصية المناضلة ، اذا لم تحقق هذا
المستوى ، فان ميوعة المقاييس كفيلا بخلق حالة من الخداع
المزدوج مع النفس ، ومع العدو . وهذا ما رأيناه عندما
سمعنا من يتكلم عن الانحطاط باسم الحضارة ، ومن يصف

الردة بالثورة ، ومن يضع رجليه في أصفاد العدو ويظن
نفسه في حدائق السلام .

ج - اما الخلل الثالث فيمكن في (النظرة الى العالم) . فعدم
التمييز بين العدو والصديق ، وبين الخصم والحليف ، لا بل
وعكس الآلية أحيانا ، بحيث يصبح العدو الامبريالي (صديقا
وحبيبا) ، لا يمكن ان يكون مجرد محصلة للنوعين
السابقين من الخلل (في النظرة الى الذات والى العدو) ، بل
انه الى حد كبير نتيجة لمؤامرة مخططة وموجهة ومسلحة
باحداث وسائل العلم لضرب الثورات من داخلها ، وتشويه
الوعي ، وافساد المؤسسات ، وترويض المناضلين . فمراكز
الابحاث في العديد من جامعات الولايات المتحدة الامريكية ،
هارفرد ، وكولومبيا ، وبرنستون) ، ومعاهد ومؤسسات
اكاديمية امريكية كمعهد هوفر (Hoover) تركز اهتمامها
عجيبا على دراسة (مشكلات الثورة) كما يشير الى ذلك
بالتفصيل (يوري كزارين) في كتابه (علم اجتماع الثورة) ،
فقد اصبح للثورة علم ، و (علم الثورة) سلاح ذو حدين ،
فالامبريالية اتخذت منه دليلا للاهتداء الى انجح السبل
لمقاومة الثورات والتأمر عليها ولغنها من داخلها (كما فعلت
مع حركة الفهود السود) لتعطيل فعالية الثورة وقدرتها على

الاستمرار في التطور ، ولتحويل عناصر من داخل الثورة الى
آلد أعداء الثورة •

وعلى ضوء هذه الانواع الثلاثة من الخلل تصبح الحاجة الى
احداث تحول حاسم وعميق في النظرة الى الذات والى العالم في
الوطن العربي ، قضية ملحة ، فالثورة العربية لن تتمكن من التسليح
بأسلحة متفوقة على اسلحة العدو ، وتستأصل جذور الانحراف
والردة ، الا اذا امتلكت اجوبة حية وشفافية على انهيارات المرحلة
العربية التي تكررت بدءا من الانفصال عام ١٩٦١ ، ثم هزيمة
حزيران ١٩٦٧ ، واخيرا المبادرة الخيانية المشؤومة عام ١٩٧٧ ،
تلك الانهيارات التي لم تتمكن الاجوبة الدفاعية السابقة ، من
وقف تدهورها •

ولكن اذا كانت الثورة الثقافية تشكل الجواب الحتمي
بالنسبة الى حركة الثورة العربية اليوم ، فما هي ملامح هذا
الطريق ؟ •

في معركة مع عدو صهيوني وامبريالي ، لا تتكافأ اليوم معه
في مستوى التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث وفي مستوى
التنظيم والتعبئة ، وغيرها من مكتسبات القرب ، ولا يتكافأ معنا
في شرعية القضية وانسانية الرسالة وتقدمية الايديولوجية ، يصبح
عامل الزمن شيئا مهما وخطيرا ، فهو مأساة مدمرة اذا بقي طويلا

الى جانب العدو ، وهو عنصر مهم في نجاح الثورة العربية عندما
يتوقف اولاً ، عن ان يكون قدراً غاشماً ، ثم عندما يبدأ بالتحول
الى جانبنا ، فأول ملمح من ملامح الطريق الى الثورة الثقافية في
الواقع العربي الراهن هو في تحقيق هذا التحول الذي يبدأ بربط
(البنئ الفوقية) من اعلام وثقافة وتربية وتشريع وادب وفلسفة
وفن ، وكل مكونات الوعي القومي والاجتماعي والحضاري ، وكذلك
البنى القاعدية (اي تحويل الطبيعة وتطوير الاقتصاد) بحاجات
معركة داخلية وخارجية طويلة وحاسمة •

فنحن لا نستطيع ان نحتال على الزمن ، ولا بد ان ندفع ثمننا
عادلا في نضالنا ، ولكننا في الوقت الذي لا نستطيع فيه ان (نخرق
المراحل) ، لا يجوز ان (نطيل في عمر المراحل) التي اتهمت وينبغي
ان تزول ، فلا بد من تعبئة القوى ، وتركيز الجهود من اجل تهديم
المعوقات حتى لا تتحول الى اسلحة مضادة في ايدي العدو •

واذا كانت المعركة المتصلة وعلى المدى البعيد ، ما تزال حتى
الآن قدرا يفرضها علينا العدو ، فان الثورة الثقافية تبدأ من تحويل
هذه المعركة الى دستور لحياتنا يملئ على الثقافة وعلى الاقتصاد
وعلى كافة المؤسسات ضرورات التكيف باتجاه المعركة فتنشأ
مدرسة المعركة ، وثقافة المعركة ، واقتصاد المعركة ، واخلاق المعركة
الى جانب معسكر المعركة وثكنة المعركة وميدان المعركة ، تلك هي

معركة النهضة التي يمكن ان تتكافأ مع معركة الغزو والاحتلال والعنصرية والفاشية للعدو .

فالمعركة ، كمسيرة تتبلور حولها حياتنا برمتها ، وتنشأ أجيالنا ضمن اطارها ، هي طريق تنقية حياتنا من رواسب عهود الانحطاط والاستعمار وتثوير النفوس والتحويل الثوري للعادات، وبناء (الانسان) الذي يفهم بعنق معنى الثورة ، ويربط القيم النضالية بمحتواها التقدمي والانساني الصحيح ، واعداد (الجيل) المستوعب لمهمته التاريخية .

فطريقنا الى الثورة الثقافية اليوم هو الطريق ذاته الذي سلكته الامة العربية عندما انتقلت من الجاهلية الى الحضارة ، فتكوين العقلية الوحدوية والنفسية الاشتراكية ، والروح الثورية، والنزعة الحضارية ، والايان بالحرية ، لا يمكن ان يتم وسط أطر تقليدية ضيقة ، ومؤسسات بيروقراطية ، ومقاييس عادية ، فلا بد من مدرسة ومعمل وحقل ، تعمل جميعها ، وتتعلم وتتفاعل من خلال مدرسة اوسع هي مدرسة (الحياة - المعركة) .

وفي ظل هذه النظرة تبرز الملامح المكتملة للثورة الثقافية المطلوبة :

آ - (نواة وحدوية) نامية تنصهر فيها قوى النضال العربي ، وتستوعب كل دروس المرحلة ، وتستأنف مسيرة النضال

١٧٠

بمستوى جديد ، يفتح الحدود المطلة على العدو جنباً الى جنب مع الحدود المطلة على الامراض الداخلية التي تشل ارادة النضال .

ب - (طاقة جماهيرية متفجرة) تعيد للشعب العربي سيطرته على الشارع ، وتفتح الابواب امام ديمقراطية شعبية واسعة تتسع للمحيطات البشرية على امتداد الوطن العربي ، وتتفجر من خلالها قوى النضال ، وتتحول الى طاقة مشعة تضاعف مردود العمل النضالي . فالديمقراطية والانفتاح على الشعب والايان بالحرية وحقوق الانسان دعوة مضللة اذا لم تكن جزءاً من استراتيجية المعركة . وهي لا يمكن ان تكون جدية ولا يمكن ان تتحقق الا ضمن اطار مسيرة نضالية شاملة وصاعدة تدخل الجماهير في قلب المعركة وتعمق مشاركتها في قيادة النضال وتوفر لها شروط الابداع في النضال .

د - (اصلاح تربوي شامل) يحقق شروط خلق الشخصية المبدعة في النضال ، ويربط تكوين الطفل العربي والاجيال العربية بحاجات المعركة . فالقيم الثورية والعقلية العلمية الحديثة ، أي التكوين الانساني الحضاري الذي يمكن ان نواجه به التحدي مع العدو ، وان نتصر به عليه ، لا يمكن ان تنمو الا ضمن اجواء النضال الجدي الحقيقي الذي ينبغي ان

١٧١

يلمسه الطفل امام كل معطى من معطيات وجوده الحسي .
فلئن كان عدونا قد وضع نفسه واجياله امام مأزق تاريخي ،
وراح يتذرع بأساليب مصطنعة للحياة ذات طابع فاشي ،
زرعت في نفوس افراده وفي شخصياتهم ، كل امراض الحضارة
الاوربية ، واقام شرط وجوده المصطنع المفروض بقوة التآمر ،
على اساس تحطيم الوجود العربي وتمثيته ، فاننا - نحن ابناء
الامة العربية - لا نحتاج الى شيء من الاصطناع في نضالنا ،
لان النضال هو الحالة السوية الوحيدة بالنسبة الى العرب
في مرحلة نهضتهم المعاصرة ، وكل شيء في هذه النهضة طبيعي
وحق وخير ، طالما انها تحول وانتقال من مرحلة ، ومن اوضاع
غير انسانية وغير عادلة الى حالة من التطور الانساني
الحضاري التقدمي ، تلتحم من خلاله مسيرة الامة العربية
بمسيرة الثورة في العالم .

فكل ما نحتاج اليه ، هو ان نسجم مع طبيعة هذه النهضة .
وما الثورة الثقافية التي تقودها ثورة قطرنا المناضل ، لانتشال
الواقع العربي من مستنقع التسوية والامتسلام ، الا بداية التحول
عن دروب الترددي والانحطاط التي سلكتها غالبية الانظمة
المتآمرة على المصير العربي جنباً الى جنب مع العدو الامبريالي
والصهيوني ، وبدء نهوض وارتفاع جديد بالثقافة وبالثورة ، الى
مستوى الشمول القومي والعمق الحضاري المطلوبين ، لتصحيح

انواع الخلل في النظرة الى الذات والى العدو والى العالم
ولمتابعة المسيرة النضالية الهادفة الى تحقيق انسانية جديدة على
الارض العربية .

انظر :

Lucian. W. Pye - MaoTse - Toung. Un Portrait. 1976.
p. 269 Paris - Hachette Essais.

✱ ✱ ✱

1. E. C. Pishell. La révolution ininterrompue. Gallimard 1964.
2. J. ESMEIN. La révolution culturelle. Seuil. 1970.
3. M. A. Macciocchi - De la chine. Seuil. 1971.
4. J. P. Dollé. Le désir de la Révolution. Grasset. 1972.
5. René Dumont. Chine - la Révolution culturelle Seuil. 1976.
6. René Dumont. Chine - la Révolution culturelle Seuil. 1976.
6. A. B. C. Domenach - Regards froids sur la Chine. Seuil 1976.

٧ - (جان دوبيه) تاريخ الثورة الثقافية في الصين . دار الطليعة
١٩٧١ .

٨ - (شرام وغارودي) ماركسية ماوتسي تونغ . دار الطليعة
١٩٧١ .

٩ - (البرتومورافيا) ثورة ماو الثقافية . المؤسسة العربية
للدراسات والنشر ١٩٧٢ .

حول الثورة العربية
والثقافة والفن

* في مقال لكم تؤكدون : « ان البعث قد استمد وجوده بالاصل من موقف تاريخي منسجم مع حاجات النهضة العربية ، ومع حركة الواقع العربي وآفاق تطوره » . . وقد حدد الحزب مناهجه في الحياة : السياسية والاقتصادية والاجتماعية العربية .

وهذا واضح عند الجميع ، لكن ما اريد أن اتبينه هنا هو : الثقافة في مفهوم البعث . فهو قد نشأ في حقبة تاريخية كانت تسود فيها انماط ثقافية يرفضها المنطق الايديولوجي للبعث .

★ د . الياس :

عندما نشأ البعث كانت هناك نماذج ثقافية متعددة ، كانت هناك الثقافة البرجوازية المشبعة بالافكار الاصلاحية ذات الطابع الليبرالي الغربي . . والثقافة الدينية ، والرجعية . وهناك أيضا الثقافة التقدمية والاشتراكية التي تنطلق اما من منطلقات لا قومية،

(*) مقابلة نشرت في العدد الاول من مجلة (آفاق عربية) . وفي عدد مجلة (قضايا عربية) .

ذات طابع اقليمية مستوعبة من التجزئة ، او من الاممية ، بالمعنى الطافر فوق المشكلة القومية ، وغير المستوعب لها . .

هذه الثقافات المتعددة لم تكن نابعة من استيعاب للنهضة العربية اي للمرحلة القومية ، ولحاجات هذه المرحلة . بل كانت تتعامل مع الواقع العربي من خلال التكيف مع (بعض) معطياته ، ومن خلال «رد الفعل» على بعض المعطيات الاخرى ، لذلك نلاحظ ان الثقافة بمنظور البعث نابعة من ادراك شمولي كلي لحاجات النهضة ، وبالتالي فهي مستوعبة لآفاقها ، ولصلة هذه النهضة بالحياة العربية وتطور المجتمع العربي عبر التاريخ . ومن هنا ، كانت الثقافة في منظور البعث تعني موقفا ، فكريا وعمليا ، من حاجات الانبعاث القومي .

بهذا المعنى نستطيع القول : بأن الثقافة في البعث هي مميز اساسي من مميزات وجوده . وهي ذات اهمية كبرى . . باعتبارها دليل عمل للجماهير العربية . . ولانها تعميق للاهداف القومية ، وهي ، في الوقت نفسه ، عامل مساعد على فهم الصلة الحية التي تصل العرب في هذا العصر مع العالم ككل . ومع مستقبل العالم ككل . ومن هنا جاء تعريف القومية ، بالنسبة للبعث ، بأنها : هذا المستوى من النضج الذي بلغته التجارب الانسانية ، والتي تلعب الثقافة فيها الدور الاول . .

فرابطة الثقافة هي أعلى الروابط ، واعتمتها . . لان العصر الذي نعيش فيه هو عصر الثقافات . . وعصر الايديولوجيات . . فاذا أردنا ، اذن ، ان نحدد تحديدا طبقي المقصود بهذا النوع من الثقافة ، فهي ثقافة جماهيرية عامة شعبية بروليتارية أيضا . . الا انها «ثقافة بروليتارية عربية» ، هي ثقافة الانسان العربي المؤمن بالقومية العربية كجماهير كادحة ، تأثرة ، تناضل من اجل وحدتها ، ومن اجل تحريرها ، ومن اجل تحقيق النظام الاشتراكي . فميزة «ثقافة البعث» هي انها ليست ثقافة نظرية مضافة الى الواقع العربي ، تتفاعل معه تفاعلا سطحيا ، تفاعل ملامسة خارجية . . بل هي نتيجة معاناة فكرية وعملية . لذلك نلاحظ ان المناضل من الطبقة العاملة ، بهذا المعنى ، قد يكون اعلى ثقافة من حامس الدكتوراه الذي تقتصر ثقافته على فهم وحفظ النظريات والسيارات الثقافية في العالم ، والذي يجيد مناقشتها دون ان يكتشف الصلة بينها وبين الواقع العربي .

الثقافة بمنظور البعث هي : ابداع . انها اكتشاف لهذه الصلة بين الانسان العربي وامته في هذه المرحلة . . اكتشاف للصلة بين الامة العربية والعالم المعاصر . . اكتشاف لطبيعة المرحلة التي تمر بها الامة العربية . . لحاجات هذه المرحلة ، ولاهدافها . . للخط الذي يجب ان تشقه الجماهير العربية لكي تصل الى اهدافها . كل هذا هو الذي يحدد الاطار العام للثقافة في مفهوم البعث .

وبهذا المعنى نستطيع القول بأن تعريفه للثقافة أخذ بعين الاعتبار
جانبين رئيسيين :

— جانب المرحلة التاريخية العربية وصلتها بالمراحل الماضية
القومية والعالمية ، وبالعصر الذي نعيش فيه ••

— الا انه أخذ بعين الاعتبار شيئا آخر داخل المرحلة الخاصة
التي نعيشها ، وهو : طبيعة التناقضات التي تقوم في الواقع العربي
•• وبالتالي : الحاجات الراهنة للنهضة العربية في النضال ضد
التجزئة ، وضد التخلف ، وضد الاستعمار والامبريالية والصهيونية ،
وضد الاستغلال الطبقي •

* افهم من هذا ان « البعث » لم يعط الثقافة
مفهوما مرحليا ، انما ربط المرحلة بالتاريخ ،
وبجذر تاريخي ، واصول تاريخية • ومن
خلال ذلك كانت نظرتة الى المستقبل ••

الواقع ان تعريف الحزب للثقافة ، او فهمه للثقافة هو نتيجة
لاستخدام منهج في التفكير • هذا المنهج في التفكير يمكن ، اذا ما
استوعبناه ، أن يساعدنا على فهم مجمل الافكار والمساهمات
الفكرية التي كانت للبعث في المرحلة الماضية • فمنهج الفكر الذي
استخدمه البعث هو منهج جدلي علمي • وبهذا المعنى نلاحظ ان
فكر البعث ابتعد عن المسلمات الفلسفية ، والصيغ الفلسفية ، فقد كان
جدلا علميا ولم يكن جدلا ماديا فلسفيا • جدلا علميا تاريخيا
يستوعب الواقع من خلال تطوره الحي • لذلك نلاحظ انه أخذ
بعين الاعتبار ، دائما ، القوانين العامة •• والخط العام للتطور سواء
على الصعيد القومي ، او على الصعيد العالمي • الا انه اعتبر ، في
الوقت نفسه ، الجدل الخاص للمراحل داخل المجتمع العربي ،

* جيدا لو نتعرف هنا على أبرز معالم النظرة القومية في الثقافة كما يتبناها « البعث » ..

النظرة القومية تأتي في منهج فكر البعث الجدلي العلمي التاريخي نتيجة لفهم انبعاثي شمولي للقضية القومية ، فالقضية القومية في المرحلة التاريخية التي تمر بها الامة العربية هي قضية نظرة موحدة الى الامة . ونظرة موحدة الى الوطن العربي ، والى جملة القضايا التي تتصل بوحدة الامة العربية .. فهي ، في هذه المرحلة ، قضية الوحدة العربية ، وقضية التحرر والتحرير ، وقضية الاشتراكية . فهذه القضية وحدة لا تتجزأ . لذلك فان النظرة القومية للثقافة وللادب والفن هي كذلك وحدة لا تتجزأ : نظرة قومية تحررية اشتراكية .

وبهذا المعنى نستطيع القول بأن المفهوم القومي للادب في البعث هو مفهوم وحدوي ، تحرري ، اشتراكي .. لان اي عزل لهذه الجدلية .. لاجزاء هذه الجدلية الثلاثية هو تجزئة للقضية القومية ، وبالتالي فهو نوع من الانحراف في النظرة الى القضية القومية . ان الوحدوية اللا اشتراكية ، النابعة من نظرة قومية خالصة ، سوف تنتهي الى نظرة الى الامة معزولة عن جماهيرها الكادحة . كما ان النظرة الاشتراكية ، اللا قومية المنبعثة من نظرة أممية تجريدية ، تنظر الى الصراع الطبقي في معزل عن تناقض التجزئة المرتبط ، نفسه ، بالاستعمار والصهيونية .. انها تنظر الى

الجماهير بمعزل عن الظروف الموضوعية وعن السياق التاريخي لنضالها .

فأية محاولة ، اذن لعزل هذه الجوانب بعضها عن الآخر ، او الاكتفاء بواحد من هذه الجوانب - جوانب القضية القومية - او التركيز عليه بشكل مطلق ، هو خروج عن منطوق وحدة القضية التي يجب ان ننظر من خلالها الى الامة كهوية تاريخية غير معزولة عن الواقع الحي (اي عن النضال الجماهيري) وكل ثقافة من هذا القبيل انما تنطوي على خلل داخلي يعطل تلاحمها ويشل قدرتها على التطور الايجابي المبدع ، لانها سوف تعيش على هامش المرحلة التاريخية ، وتفتقر الى التفاعل الحي مع الجماهير ، ومع الامة الكادحة التي تتألف من جماهير محرومة مناضلة ، ومن عدد قليل مستغل (بكسر الغين) ارتبطت بمصالحه بمصالح الاجنبي .. فهو ليس من هذه الامة ولو انه ، شكليا ، ينتسب اليها .. وبالتالي ، فان مفهوم التحرر والحريّة هو اعماق ما في مفهوم الثقافة في البعث من معان ، لانها تحرير للامة من التجزئة ، وتحرير للجماهير من الاستغلال ، وربط الامة بهذا العصر الذي هو عصر الاشتراكية . وبناء للانسان العربي الحر التقدمي .

لذلك ، فان النظرة القومية بمنظور البعث للثقافة هي نظرة اشتراكية . نظرة ثورية ، نظرة علمية جدلية اي نظرة شاملة الى الامة .

* وهنا يدخل التراث كجزء من التكوين الحضاري
للأمة العربية . فما هي نظرة البعث للتراث ؟
وما هو موقفه منه ؟

التراث في مفهوم البعث يؤخذ مجردا عن حركة التاريخ
العربي الحية المشخصة ، فهو ليس « النتاج الفكري » المتبقي من
المرحلة السابقة ، معزولا عن الحياة العربية ونضال جماهير الأمة
العربية بل هو في نظر البعث ، هذه الصلة الحية بالماضي . فالنتاج
كان نتيجة لثورة هزت المجتمع العربي ، ووحدته ، ونقلته من
مستوى الجاهلية الى مستوى الحضارة ، لذلك ، لا يمكن عزل
التراث عن هذه الحركة الحية التي هزت المجتمع
العربي ونقلته من مرحلة الى مرحلة أعلى وأكثر تقدما ومختلفة في
النوع وليس في الدرجة .

لذلك فان العودة الى التراث لا يمكن ان تكون بالفكر وحده
لان العلاقة بالتراث ، في منظور البعث ، نضال جديد .. هذا النضال
نرتفع فيه الى مستوى الثورة ، حتى نستطيع ان نستوعب التراث
الماضي استيعابا مبدعا .. استيعابا حيا .. فلا نطلق من عقل
مستسلم للتجزئة وللإستعمار ولصنيع الإستغلال الطبقي ، ولا يكون
اتصالنا بالتراث اتصالا عقيبا ، اتصالا يتركنا عبئا عليه .
فالهم هو أن تتفاعل مع التراث .. ان نعود الى التراث من خلال
مواقع النضال الذي يؤمن بأهمية الفكر ، وأهمية الثقافة ، وأهمية

التفاعل مع الثقافة المعاصرة ، لان « التقديمية هي وسيلة اتصالنا
بماضينا » . كما يقول مؤسس البعث الاستاذ ميشيل عفلق . هي
الطريق الذي يجعل هذه الصلة صلة حية .. صلة مبدعة . صلة
قادرة على ان تجعلنا نرتفع فيها الى مستوى التفاعل المبدع مع
هذا التراث .. فنستطيع ان نكمل هذا التراث .. ان نتابع
خطواته المبدعة في الماضي ، وهذه الصيغة الجدلية العلمية الثورية
التي تحتل في فكر البعث موقعا مهما ومتميزا عن الطروحات الأخرى
التي تتناول العلاقة بالتراث ، هي التي تكشف اولاً عن حتمية هذه
العلاقة . كما تكتشف خطأ الطرح النظري المجرد والمنطق الشكلي ،
الذي ينقل المسألة من مستوى الواقع الحتمي الى الاحتمال الجائز ،
كما لو ان هذه العلاقة يمكن ان تكون موضع اختيار .

الاتصال بماضينا شيء قائم ، وموجود ، ومحتوم ، لانه
كما لكل منا ، تاريخه الخاص ، فان له تاريخه الجمعي أيضا .
وكما ان له لا شعوره الفردي ، له أيضا ، لا شعوره الجمعي .
وتاريخنا يتسرب الينا .. داخل فينا ، وجزء من تكويننا . ولكن
اما ان تكون صلتنا بتاريخنا ، بماضينا صلة عجز وفقر ، او صلة
نقدية سطحية طائشة لا تستوعب هذه الصلة الحية بين الماضي
والحاضر والمستقبل .. او ان تكون صلة مسؤولة . صلة تساعدنا
فعلا ، على تطوير ذواتنا كأفراد .. كأشخاص عربي ، او كأمة تعود

الى ماضيها .. كأجيال تعود الى منابع التراثية لكي ترى ، على
ضوئها ، مدى تخلفنا عن المواقع البطولية التي يجب ان ترتفع اليها
حياتنا ، وبالتالي يمكن ان نواجه بها التحديات التي تمر بهما
الامة العربية .

الصلة بالتراث ، اذن ، ليست موضوع اختيار .. هي صلة
طبيعية تاريخية تكوينية مدركة او لا شعورية .. وهي قائمة
عمليا على درجات واشكال : فهي اما قائمة كصلة سلبية بالتراث ،
او صلة ايجابية سطحية ، او صلة ايجابية ، عميقة ، ثورية ، قادرة
على ان تستوعب الصلة بين ماضي الامة وحاضرها ومستقبلها .

* طيب : وعلى اي نحو ترون امكان اقامة
الصلة بيننا وبين التراث ، مع الحفاظ على
روح المعاصرة ؟

الاخلاص للحقيقة الفردية كالاخلاص للحقيقة الاجتماعية ،
سواء بمستواها القومي او الانساني . هذا الاخلاص يتطلب
مستوى من المعاناة ، الحية ، المسؤولة .. ونوعا من التربية
الذاتية .. نوعا من النقد المستمر ، الداخلي .. لمعرفة مواقع
اقدامنا من ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا . فهذه الصلة بين التراث
الحي وبين الحاضر الحي أيضا لا تتحقق من دون ان نمر بتجربة
حية حقيقية . والتجربة الحية الحقيقية هي المعاناة : معاناة التمزق
الذي تعيش فيه الامة .. معاناة التخلف .. معاناة البعد عن حقيقة
الامة .. عن استعدادها .. عن طاقات جماهيرها المعطلة .
هذه المعاناة تدفع الى المزيد من النضال ..

اذن .. النضال هو الوسيلة الحقيقية للابقاء على هذه الصلة
المتوازنة بين التراث وبين المعاصرة . والنضال يوثق صلتنا بالماضي ،
يجعلنا نحتاج هذه الصلة . فهي التي تدعنا في نضالنا ، وتقوينا ،
وتساعدنا على تحديد هويتنا الحضارية .

والنضال يجعلنا في تعامل مع العالم المناضل ، كسند لنا ، ومع
العالم المضاد للثورة ، المعادي لثورات الشعوب المضطهدة التي

نحن جزء منها . لذلك فان هذا التوازن لا يمكن ان يكون نظريا .
فالصلة بين التراث والمعاصرة هي توازن عملي . . أي انها موقف
يمارس يوميا من خلال الصلة بالمشكلات الحقيقية للامة .
فالإخلاص للامة ، ولاهدافها هو الذي يجعل هذه الصلة صلة
عضوية ، وكما تكون الصلة بتاريخنا الماضي . . وحياتنا الماضية ،
كذلك فانها ، تكون بمستقبلنا ومستقبل اهدافنا . .

* حتى الآن ، كنا نتحدث في الثقافة ، والموقف الثقافي للحزب . فهل لكم أن تحددوا ، هنا ، بعض معالم سياسة الحزب في الفن ؟

انها تظهر اولاً في الاجراءات العملية التي شجعت وتعهدت الفنانين في هذا القطر ، الحركة الفنية ، وأبرزت المظاهر الفنية في حياة بغداد ، وعززت الاهتمام بالتراث الحضاري القديم أيضاً . كل هذا يعكس اهتماماً خاصاً بالفن . وسياسة الحزب هي في تشجيع النهضة الفنية ، وتشجيع التعبير عن الفكرة العربية الثورية تعبيراً ادبياً وفنياً ، وربط الفن ربطاً طوعياً بمشكلات الأمة . لذلك يمكننا ان نتبين ملامح هذه السياسة فيما ورد في مقررات المؤتمرات الحزبية . ويمكن بنفس الوقت ، ان نجد في « ميثاق العمل الوطني » اشارات واضحة الى هذه الجوانب . ونظرة الحزب المستمدة من مفاهيم الحرية والتحرر والثورة على واقع التجزئة والتخلف والاستغلال الطبقي ، والتي تتميز بأفق حضاري انساني ، لانها تتطلع الى اعادة الأمة وواقعها الاجتماعي الى وضع صحي ايجابي نشيط وفاعل في الحياة الانسانية . ومواقف الحزب ، كلها تدل على ان سياسة الحزب في هذا المجال هي : تشجيع كل مبادرة فنية ، وتشجيع التقائها بحركة

النهضة العربية ، وبالتعبير عن حركة النهضة العربية .. التعبير عن
مشكلات الجماهير العربية .. عن مآسي النضال العربي .. عن
طموحات النضال العربي .. وبالتالي : تأصيل الادب .. تأصيل
الفن بتوثيق صلته بالتراث .. وتطوير الادب والفن باتجاه الافتتاح
على الاتجاهات المعاصرة والحياة المعاصرة .

* كثيرا ما ترد عبارة « الادب الثوري » او « الفن
الثوري » على اقلام الكتاب التقدميين ، ترى ،
على أي نحو يحدد البعث هذا المفهوم ؟

المعيار لثورية الادب هي درجة صلته بالجماهير ، وبالتعبير
عن حاجات الجماهير :

الجماهير كلمة عامة ، لذلك يجب ان ترتبط بسياقها التاريخي
والجغرافي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي . فالادب الثوري
هو الذي يعبر عن طموح الجماهير ضمن اطار حركتها التاريخية
النضالية ، وبالتالي هو الذي يساعد على رسم الطريق امام هذه
الجماهير ، وعلى تفتيح وتفجير طاقاتها .
هذا هو الادب الثوري بشكل عام .

اما بالنسبة للادب العربي الثوري ، فهو ، في واقعه ، ادب
الوحدة العربية .. ادب الاشتراكية العربية .. ادب التحرر العربي
.. فبقدر ما يرتبط الادب بتحرير فلسطين .. بالوحدة العربية ..
بالطبقة العاملة .. بالكفاح ضد الاستعمار .. ضد التخلف ، يكون
ادبا ثوريا له مضمون ثوري . وعندئذ تكون جماليات الادب ،
وجماليات الفن ذات ارتباط صميمي بالحركة الاجتماعية ، وبحركة

النضال القومي .. وتكون تماما ، كالجسد : ملامحه ترتبط بمعانيه
ارتباطا عميقا ، وبحركته ، وحيويته ، وبنشاطه .

لذلك ، هناك اكثر من نظرة الى تعريف الادب الثوري .

اذا اخذنا مفهوم « الواقعية الثورية » ، بمعناها الدوغمائي
الذي يعتمد المنهج الجدلي المادي بشكل آلي ، نلاحظ ان هذا
الفهم قد لا يستوعب الجوانب الذاتية استيعابا عميقا (الجوانب
السايكولوجية ، والجوانب التي تتعلق بالمرحلة
القومية والعلاقة بالتراث) لذلك لا بد ان يضاف
الى هذا الفهم الجدلي اطار وظيفي .. اطار عملي ، بنيوي ،
فالمدارس التي حاولت في المرحلة المتأخرة من التطور العالمي ،
على صعيد الفكر وعلى صعيد الفن ، ان تربط الادب بالبنية
الاجتماعية ككل .. بمجموعة العلاقات الاساسية التحتية للمجتمع
(والتي هي بالاضافة الى كونها « علاقات انتاج » .. هي علاقات
نضال اي علاقات صراع مع التخلف .. علاقات نضال ضد
الامبريالية والصهيونية من اجل كشف الهوية التاريخية للجماهير
المناضلة .. الهوية القومية التحررية الاشتراكية) .. وبكلمة واحدة
ربط الادب (والشكليات الجمالية) بضمونها الحقيقي ، لا ان تكون

مجرد نقل لمدارس ادبية وفنية ، ومحاولة تطبيقها على واقع غير
متجانس مع الواقع الذي نشأت منه تلك النظريات .

الادب الثوري ، اذن ، هو الادب الذي يستطيع ان يبدع ..
ان يكتشف ، لا ان ينقل فقط ويقلد . هو الذي يكتشف حاجات
الامة ، وهو التعبير عن هذه الحاجات تعبيرا يساعد الجماهير على
ان تنطلق اكثر ، وعلى ان تفتتح امكانياتها اكثر .. وبالتالي :
تجعل النهضة العربية ليست مجرد عمل فيه قوة وحيوية ونشاط ..
انما فيه ، أيضا ، حضارة ، وفن ، وجمال . فداخل المفهوم
الاشتراكي القومي التحرري هناك جانب انساني عميق يتصل
بالقيم الجمالية التي هي ، بحد ذاتها ، قيم انسانية حضارية .

* المعروف أن البعث لم يقصر ادبائه وفنانيه على
تبني صيغة جمالية محددة • فهو قد طالب
بالالتزام، ولكنه ترك لهم « الحرية في الالتزام » .
فهل هناك مفهوم محدد للالتزام في الأدب
والفن لدى البعث ؟

لان البعث لم ينطلق من صيغة فلسفية مغلقة • أي من مدرسة
فكرية ذات افكار نهائية •• ولانه حاول ان يتفاعل تفاعلا جدليا
علميا تاريخيا مع ماضيه ، ومع حاضره • لذلك فانه حاول ،
باستمرار ، ان يكون فكره فكرا جدليا كاملا ، وليس فكرا جدليا
جزئيا • بمعنى : ان العلاقة بين الفرد والمجتمع •• بين الذات
والموضوع العلاقة بين الامة وبين المجتمع العالمي الراهن • العلاقة
بين الماضي وبين الحاضر والمستقبل •• هذه العلاقة اتصورتها علاقة
جدلية ، كاملة حية •• أي متطورة •• وبهذا المعنى نلاحظ ان أي
قصر للعامل الموضوعي لحساب الذاتي ، أو قصر الذاتي لحساب
الموضوعي يكون فيه اصطناع •

بهذا المعنى نجد ان مفهوم « الالتزام » - الذي يؤكد
الطبيعة الجدلية للعلاقة بين الذاتي والموضوعي ، هو أقرب من
« الالتزام » - الذي يضع الذاتي في موقع تبعية تضيق فيه المساحة
اللازمة من الحرية للإبداع الفني - تعبيرا عن الصيغة التي تتصور
فيها مجال التفاعل ، للوصول الى التعبير الجمالي والفني

ضمن اطار عام • فالحزب حدد (الاطار العام) الذي يستطيع البعثي
من خلاله ان يستوعب مهمته الفنية ، والادبية • أما تحديد الدقائق
والتفاصيل فهذا شيء يعني تدخلا في حرية الفنان ، وبالتالي في قابلية
الابداع لديه ، ويؤدي الى الحد من هذه القابلية ••

ولان فكر البعث قام على اكتشاف الحقائق الجديدة ولم يجتر
حقائق قديمة ، فانه حاول ان يستفيد من كل التراث العربي ، ومن
التراث الثوري العالمي ، دون ان يكون ذلك قيذا للإبداع فيه •
لذلك كان شيئا طبيعيا ان يكون مفهوم الالتقاء الطوعي الداخلي
بين نظرة الاديب ونظرة السياسي (الذي هو ، بنفس الوقت ،
المناضل البعثي) • هذا الالتقاء هو الذي يجعل شخصيته متكاملة
تكاملا حقيقيا • ان يكون الانسان حقيقيا لا ان يكون مقلدا •
فتجربته السياسية تتفاعل مع تجربته الفنية ، مع تجربته الجماهيرية ،
أي تتداخل جملة العوامل المكونة لثقافته (العوامل الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية) حتى يكون الانسان المبدع •

هنا ، ربما نحتاج لفهم هذه الصيغة ان نشير الى العلاقة بين
البنية الفوقية والبنية التحتية • هذه العلاقة ، أيضا ، فهمت في
البعث فهما جدليا •• أي : لم يكن الفن مجرد انعكاس لحركة
الواقع المادية •• الفن هو التفاعل المبدع مع هذه الحركة ••
وبالتالي فانه كما يتأثر بها ، يؤثر فيها •• وهذا التأثير احيانا يكون

عميقا ، لان الثورة ابداع ، والفن والادب من اهم العوامل المساعدة على هذا الابداع . لذلك فان أي مجال يترك للاديب أو للفنان الفرصة لكي يتحد بالنهضة العربية اتحادا داخليا هو الذي يعكس مفهوم الالتزام عند البعث .

فالثورة هي (فن اعادة بناء المجتمع) بشكل يتخلص فيها من التشويهات التي تحد من انطلاقته وتقدمه . وكما ان (التأثير) ينطوي على (الفنان) في داخله ، والثورة تتضمن (نظرة فنية) الى الحياة ، كذلك فان كل فنان ينطوي على بذرة الثورة ، فهو مشروع تأثر ، لا يتجاوز ذاته الا اذا التحم بحركة الجماهير كشرط اساسي لاتحاد الفنان بالتأثر في داخله .

* ووفق هذه النظرة ، كما اظن ، حدد البعث الدور الاجتماعي للادب والفن في الحياة العربية ..

نعم وفق هذه النظرة حدد المفهوم الاجتماعي ، والدور الاجتماعي للادب والفن .. وهو دور قائد .. هو ، تماما ، كما الثقافة بوجه عام ، كما الايديولوجية بشكل عام . فأيديولوجية البعث تحتضن المفاهيم الادبية والفنية كعامل مساعد في خلق صلة حية بين الجماهير العربية وبين فكرتها .. بينها وبين طريق نضالها .. بينها وبين الطبيعة ، الاداة الاساسية لهذا النضال . وبهذا المعنى لا يكون الادب مجرد تزيين للعمل السياسي ، ولا ترفيه او امتداد سطحي وشكلي ، انفعالي ، اضافي للفعالية السياسية ، والفعالية الاجتماعية .. بل هو سلاح : سلاح في التطوير الاجتماعي ، والتطوير السياسي ، والتطوير في كل جوانبه : المادية والمعنوية . ان الادب والفن ، هما اكثر من رافد يصب على الحياة الاجتماعية ليغنيها ويدفعها باتجاه الاهداف الكبرى للمرحلة التاريخية . انهما ، الى حد كبير ، يشكلان معيارا من اهم معايير التطور باتجاه هذه الاهداف ، لان الاستعداد للتخلص من القديم البالي ، والروح النقدية الفاحصة ، المميزة ، الوازنة بدقة ، لمستوى

التحولات الاجتماعية ، وغيرها من الفضائل التي تشد الانسان
- الفرد والمجتمع ، الى الاهداف الكبرى ، تجد في الادب والفن
مدرسة حية متجددة ، تعطي ، وتحاسب ، وتؤشر علامات النجاح
والفشل ، في آن معا . وكلما اتجه الادب والفن الى الجماهير وكانا
متنفسا لها ، كان دورهما الاجتماعي ريادة وقيادة .

* يبدو من هذا ان جوهر نظرة البعث ، في هذا
المجال ، تختلف عن نظرة مدارس ادبية وفنية
عديدة . فهل بالامكان تحديد موقف البعث
من هذه الاتجاهات والمدارس السائدة اليوم
في الحياة الثقافية العربية ؟

اصول هذه المدارس ترجع ، في الواقع ، الى مرحلة سابقة
لبداء النهضة العربية . وهذه الاصول مستمدة من الثقافات الغربية ،
هذه الثقافات التي تركت في مجتمعا آثارا كثيرة انعكست على
مجتمعنا عن طريق المثقفين والفنانين الذين درسوا في الغرب .

التيارات الفنية ، والمدارس الفنية في الغرب عبرت عن سياق
تاريخي معين . . عن مجتمع معين في مرحلة زمنية محددة من تاريخ
تطوره . . وبالتالي ، فان نقل هذه الصيغ له فائدة اذا كان النقل
للتفاعل وليس للقولبة ، أليس من المفارقة نقل افكار ومدارس من
سياق تاريخي الى سياق تاريخي آخر ، ومن سياق اجتماعي الى
سياق اجتماعي آخر ؟

ان المدارس المعنية يمكن ان تصنف تصنيفات متعددة ، منها :
المدارس الواقعية الاشتراكية ، ومنها المدارس المثالية . . منها
المدارس الملتزمة ، والمدارس غير الملتزمة . هناك المدارس التي يمكن
ان تنتمي الى البرناسية ، والى التكعيبية ، والى التجريبية ، والى

المدارس الحديثة المتعددة • يمكننا، نحن، ان نلتقي بهذه المدارس،
وتفاعل معها، وفهمها • لكن لانستطيع، اذا اردنا ان نكون مبدعين،
الا ان نبدأ من منطلق اساسي مهم، هو المنطلق التراثي أي من
الهوية الاجتماعية التاريخية في تفاعلها مع الحاضر والمستقبل • ومع
المشكلات الحية الاساسية التي تشكل جذر حياة الفنان • بأن
نستوعب التراث العربي استيعابا عميقا، وفي نفس الوقت بأن نفهم
الواقع العربي الراهن بكل ما فيه من عيوب وجوانب متميزة • • لان
تناقضات الواقع العربي، والمآسي التي يعيشها، والجوانب الايجابية
لتطوره، لها ابعاد في نفس الفنان الاصيل يمكن ان تصاغ فيها،
وان تدرس فيها • • وبالتالي يمكن ان تكون موضوعا • • فوادة
لنظرية في الادب والفن تتكامل مع النضال العربي، ومن خلال
التفاعل مع هذه المدارس، أيضا • لان احدى مهمات الادب
والاديب والفنان، هي ربط المجتمع بالعصر •

لذلك، فالمدرسة البعثية في الفن، وان لم تعط صيغتها
المتكاملة بعد، خطها الاساسي هو هذا التفاعل الخصب، المبدع
بين التراث وبين تحليل الواقع العربي الآن، والنظر اليه نظرة جمالية
مستندة الى تحليل واقعه، وفهم هذا الواقع، وبين نهضة الجماهير
العربية • • هذه النهضة التي لها معان جمالية ايضا بقدر ما لها من
معان سياسية واجتماعية واقتصادية معينة، والتي تتفاعل، ايضا،

مع عالم له نظرياته ومفاهيمه • وبهذا المعنى يمكن ان تبين في بعض
المحاولات التي يقوم بها الفنانون والادباء العرب تلمس طريق جديد
هو ليس من قبيل تقديس الجديد، او الرغبة في التفرد من اجل
التفرد • • انما من اجل ان تكون النظرية الادبية والفنية معبرة عن
حقيقة نعيشها • • تعيشها جماهيرنا • •

ان نظرية البعث هي نظرية الواقعية الاشتراكية، لكن بمعناها
الاوسع شمولاً • هي واقعية قومية تحريرية اشتراكية، تحمل نفس
سمات الايديولوجية العربية الثورية، لكن معطى لها كل المجال لان
تكون صلة الادب والفن فيها بالسياسة وبالحيات الاجتماعية،
وبالاقتصاد صلة عضوية، وليست صلة ميكانيكية •

* طيب : وهل تعتقدون ان لدينا ، عربيسا ،
صيفا واضحة لثقافة ثورية ، وادب ثوري ،
بالمعنى الدقيق لذلك ؟

هذا موجود في الماضي العربي كما هو موجود في الحاضر
العربي .. اذا اخذنا ، مثلا ، اراجيز الشعراء المناضلين ، سواء في
فلسطين او في الثورات العربية المعاصرة .. وبالتالي : عندما نتبين ،
أيضا ، في جهد العديد من الفنانين والشعراء ملامح تعبير (جزئية
أحيانا ، وخاطفة أحيانا اخرى) عن هذه النهضة العربية ، نستطيع
القول : ان هناك بوادر جدية ، وبوادر ذات اهمية كبرى في التعبير
عن هذه النهضة العربية . ومن هنا نستطيع ان نتفاءل بأن الفكر
الثوري العربي الذي شق طريق الجماهير العربية من اجل النضال
الوحدوي التحرري .. هذا الفكر الثوري ، بحد ذاته ، ينطوي
على بعد فني .. أي ان له نظرة الى الامة كوحدة .. له نظرة الى
الامة وقد تجاوزت تناقضاتها ووصلت الى مرحلة اعلى ، واستطاعت
ان تهب للانسانية ذاتها ، وتثبت لها قيمها .

هنا ، في الواقع ، لا نستطيع منذ الآن ، ونحن في بداية
النهضة العربية ، الا ان نكون في مستوى قاعدة الهرم بالنسبة
لالصيغ الثقافية ، والصيغ الفكرية والفنية . التبلور في هذه المفاهيم ،
والوصول الى المستوى الذي وصلته الثورات الاخرى ، والمجتمعات
الاخرى .. هذا شيء فيه احراج للتاريخ .. فيه نوع من المصادرة

على المطلوب في المرحلة الراهنة . اذ لا يمكن ،
بشكل من الاشكال ، توقع ان يكون هناك
ادب عميق ثوري متصاعد الانتاج ، ومنتام ، وغزير ، باتجاه بلورة
مفاهيم ثورية محددة ، وشبه متكاملة .. الا اذا نظرنا الى المستقبل ،
اي الى مستقبل حركة النضال العربي .. فكلما تعمقت واشتدت
هذه الحركة ، وتعمقت وحدة النضال العربي ، والصيغ القومية
للنضال العربي ، والصلة بين هذه الصيغ القومية وبين الجماهير
العربية ، كلما ظهر الادب الثوري بعمق أكبر ، وبتناج أوفر ..

الآن .. هناك ملامح .. هناك بوادر . فعلا اذا نظرنا ،
بدراسة تحليلية ، الى ادب ونتاج كل الكتاب والفنانين ، مهما كان
انتاجهم ومهما كانت مدارسهم ، نلاحظ هناك بعض الجوانب التي
تصب في تيار الثورة في الوطن العربي .

ان وتيرة التطور في الثقافة وفي الادب والفن ، غيرها في
السياسة وفي التطور الاجتماعي ، لانها تحتاج الى عملية انضاج
فكري ونفسي تستغرق زمنا اطول . ومن الغرور ان ندعي ، في
مثل هذه المرحلة من النهضة العربية انه قد تكون لدينا الآن ثقافة
ثورية وادب ثوري بالمعنى الدقيق لذلك .

* على اي نحو يفترض البعث صلة الاديب او
الفنان المنتمي اليه بالجمهور ؟

الصلة بالجمهور لها جانبان : جانب فكري ، وجانب عملي .
الجانب الفكري هو ان يعيش الاديب نوعا من المعاناة
الفكرية تجعله قريبا من جماهيره . ان التحام فكر الاديب
بايدولوجية الجماهير العربية المناضلة ، يشده اليها فكلما كانت
المعاناة الفكرية (اي هذا النوع من التفاعل مع فكرة الوحدة
العربية ، مع فكرة الاشتراكية ، مع فكرة التحرر والتحرير) عميقة ،
كلما كان قريبا من جماهيره ، اينما كان . هذا الجانب الفكري
اساسي ومهم ، ويجعله قريبا من الجماهير حتى لو كان بعيدا عنها .
الا ان هذه الصلة تبقى جزئية ، لان هذا الشرط يجب ان
يقترن بشرط آخر لكي يأخذ معناه الحقيقي . . . وهو : « المعاناة
القومية » : المعاناة القومية اليومية لمشكلات النضال الجماهيري
على صعيد الوطن العربي هناك بؤر للنضال العربي . هذه البؤر
تشتد احيانا في هذا القطر ، و احيانا في ذلك . . . وبالتالي ، فان الاديب
بقدر ما يتمتع بهذه الصفة القومية التي تجعله متفاعلا مع هذه
التجارب اليقظة . . . تجارب الكفاح القومي التحررية الاشتراكية في
اي مكان . . . عندئذ يكون ، فعلا ، قريبا من جماهير الامة العربية .
الى جانب المعاناة الفكرية والقومية هناك معاناة نفسية

وجدانية فالفنان والاديب يعيش هموم الجماهير ، افراحها وتفاؤلها
وقلقها وغمها ، هموم العمل والبطالة ، هموم العيش . هموم الكدح
والقهر ، وهموم النضال والكفاح .

أحيانا ، اصطناع الادوار لا يفيد شيئا . . . يعني ان يذهب
الاديب ليعيش اسبوعا في معمل ، او في مزرعة ، او في محيم للاجئين ، او
في ثكنة عسكرية . هذا ، بحد ذاته ، مفيد . ويوقظ في الاديب
الكثير من المشاعر . . . لكنه بالاصطناع لا يوقظ شيئا . فكلما
توفرت ظروف ومجالات التقاء الاديب بالجمهور ، كلما كان هذا
أفعل في تعميق صلته بالجماهير ، أنا اتصور الاديب الثوري الذي
يعيش بصورة طبيعية في حي من احياء الكادحين ، وبالتالي يستطيع
ان يعايش الجمهور بشكل عنوي ، ليس فقط في حي من احياء
بغداد ، بل في احياء دمشق والقاهرة والجزائر وفي كل مكان فيه
الحياة عربية ، والنضال عربي تقدمي . . . عندئذ يستطيع ان يكون
قريبا من هذه الجماهير .

المهم هنا ، كما قلت ، هو ان يتخلى عن كل ما دخل الى ذاته
من روااسب الافكار والعادات التي لا تنتمي الى حركة الجماهير
العربية . فكلما تخلى عن روااسب الفكر البرجوازي ، وعن نفسية
وعقلية التجزئة ، كلما كان مستعدا للنضال غير المأسور لعادات
رفاهية محددة . او لمصالح قطرية او نظرة اقليمية وكلما امتلك

حريته ، كنهان حقيقي ، كلما نظر الى هذه الحرية من خلال جراح
امته ، ونضال امته ، ومن خلال روح العصر ومفاهيم العصر ،
وبالتالي كلما كان اقرب الى الجماهير ، لان الجماهير التي تبدو كما
منفعلا أحيانا ، هي ، في الواقع وقد يمثل المرحلة الراهنة للامة
العربية ، طاقة من الثورة ومن الاستعداد النضالي ، ومن الوعي
الكامن ، ومن المعاناة النقدية المستمرة ، التي تنضج التغيير النوعي .
فهي المؤهلة لان تتفاعل مع قدر الامة ، ومع هذا العصر ، اكثر بكثير
من عديد من المثقفين الذين لا يملكون معاناة . الجماهير كلهم معاناة ،
والاديب لا يكون قريبا من جماهيره الا بهذه المعاناة . والمعاناة
المنظمة ، العميقة وحدها تملك القدرة على ان تكتشف المعاناة
الجماهيرية ، وان تصوغها بقلب فني صحيح .

* كثيرا ما تذهب الدراسات الى ان هناك ازمة
ثقافة في عالم اليوم ، برأيكم : الى أي حد
يصدق هذا ، وبالذات بالنسبة للثقافة
العربية ؟

نعم . . هناك ازمة ثقافة في العالم المعاصر عبر عنها الاستاذ
جان بياجيه ، عالم النفس السويسري الشهير بقوله : « اننا لا نفهم
العالم الراهن لا فكريا ولا خلقيا . اننا نشبه ازاءه رجل الاسكيمو
الشيخ المسن الذي سأله احد العلماء : لماذا تترك قبيلته ببعض
العادات والطقوس التي اعترف بأنه لا يدرك لها معنى . ولكنه
أجاب : « اننا يا سيدي تترك هذه التقاليد لكي لا ينهار
العالم » ان الثقافات الماضية التي استجابت لظروف نشأتها ،
تجد نفسها بعد الحرب العالمية الثانية ، أمام ظروف جديدة متبدلة ،
وتدخل مرحلة الازمة ، ازمة التكيف مع المعطيات الجديدة . لانها
بالرغم من رصيدها التاريخي ، لم تعد تكفي جوابا على معطيات
هذا العالم . فعصرنا يفتش عن حضارة جديدة ، كما يقول موريس
كروزي (في الجزء السابع من موسوعة التاريخ العام للحضارات) .
وهذه الازمة لم يعد يعبر عنها تعبيرا وصفيًا فقط ، بل انها ، في عالم
ما بعد الحرب العالمية الثانية ، أصبحت تقاس قياسا كميًا . فهناك
دراسات تكشف عن ان المعرفة البشرية تتضاعف كل عشر سنوات .
وفي احدى اللجان التي شكلتها اليونسكو برئاسة (ادغار فور)

من اجل قياس مدى تخلف المناهج عن تطور الثقافة ، هناك اشارة الى ان اكثر المدارس تكيفا مع الثقافة متخلفة بمقدار ثماني سنوات ، وهي نفس المدة التي تتضاعف فيها الثقافة ، لذلك نلاحظ ان هناك أزمة ثقافة ، وهي أزمة تسارع في تطور الثقافة .

وهناك أزمة عبر عنها (بيير هنري سيمون) ، احد الاكاديميين الفرنسيين ، عندما اشار الى نوع جديد من الاستلاب : استلاب العالم في موضوع علمه . . لان العالم ، مهما كان تخصصه فرعيا ، نلاحظ ان المعرفة تتجاوزه بسرعة لا يستطيع معها اللحاق بها وامتلاكها . فهو حتى في هذا الميدان المحدود الضيق الذي تتطور فيه المعرفة بسرعة كبيرة ، نلاحظ ان العالم لا يتمكن من اللحاق بموضوع علمه وان ذلك يجعله يعيش نوعا من الاغتراب حتى داخل هذا النظام من المعرفة .

ازمة الثقافة لها وجه آخر في العالم المعاصر ، هو ان التقدم التكنولوجي ، والتقدم المادي ، بشكل عام ، ليس مصحوبا بتقدم فكري وتربوي يضبط هذا التطور التكنولوجي .

ثمة وجه آخر لهذه الازمة ، هو : ان العالم المعاصر الذي نعيش فيه ، من جملة سماته انه عصر الثورة التقنية الحديثة . . الا انه ، في نفس الوقت ، عصر الاشتراكية . لذلك نلاحظ هنا ان عدم وضع الثقافة والتطور العلمي التكنولوجي ، وضبط هذه التحولات

بشكل يضعها في اطار اشتراكي أي ، في خدمة الجماهير ، (لان هذا العصر ، ايضا ، هو عصر الجماهير) ، هو احد ملامح الازمة التي تعيشها الثقافة في العالم المعاصر .

اما على الصعيد العربي ، فلثقافة ازمتها المزدوجة : أزمة تتعلق بالعلاقة بالتراث الماضي ، وازمة علاقة بالحياة المعاصرة وبالمشكلات المباشرة التي يعيشها الوطن العربي . ان صورة الماضي العربي ما تزال تعاني من تراكمات ، جعلتها غامضة ومغلقة بكثير من الرواسب التي تحجب حقيقته . فهي ما تزال في منأى عن الوضوح الكامل في أذهان المثقفين العرب . وكذلك العالم الراهن في صورته الكلية الشاملة وحركة تطوره الجدلية . لان الثقافة اللغوية ، ثقافة التريديد البيعاوي والاقتباس السريع ، وثقافة الترجمة والتجميع ، الثقافة البورجوازية المعزولة عن الاطوار السياسي والاقتصادي والاجتماعي لحركة الجماهير العربية ونضالها . الخ ، تعكس الملامح المتعددة لازمة الثقافة العربية . فأزمة الثقافة العربية هي أزمة المثقف العربي . والمثقف العربي لا يمكن ان يحل ازمته ويشارك في حل الازمة العامة للثقافة الا عندما يصبح مناضلا ، بكل معنى الكلمة . . أي مرتبطا بمصلحة ونضال الجماهير الكادحة ، المناضلة في الوطن العربي ، وفي مقدمتها الطبقة العاملة . وعندئذ لا تكون ثقافته ثقافة كتب ، بل ثمرة للكفاح اليومي والمعاناة اليومية المنظمة المسؤولة ، وللمشقة الفكرية والجهد اللازم لايجاد

الحلول للمشكلات التي يطرحها النضال الهادف الى بعث الامة العربية .

ان الازمة ما تزال قائمة وموجودة في خلفيات حياتنا ونتاجنا ونشاطنا ، وابعادها تأخذ شكلا مأساويا عندما نلاحظ الكلام عن الوحدة العربية المقترن برواسب عقلية التجزئة ، ونفسية التجزئة الكامنة في خلفيات الالفاظ التي تستخدم في البحث والتعبير عن قضية الوحدة ، وعن ثورة الوحدة ، وعن تحقيق الوحدة .

وكذلك في ملاحظة التناقضات في الطرح الوجدوي ، وفي التطبيقات الوجدوية ، وفي المسار الوجدوي الذي لا يكون ، في كثير من الاحيان ، معبرا عن هدف الوحدة ، انما عن مصالح طبقية ، او مصالح وقتية ذاتية لا علاقة لها بالتطور الموضوعي للمرحلة العربية والواقع العربي . والامر نفسه نلاحظه ايضا فيما يتعلق بأهداف الاشتراكية والحرية والتحرير ، وغيرها من الاهداف الاساسية للمرحلة العربية الراهنة .

* هذا الاشكال القائم : ما هو السبيل الذي ترونه اوفق من غيره لعله ، بهدف حسم هذه التناقضات ؟

هناك نوع من الثنائية يسيطر على الحياة العربية ، كما يسيطر على كل مجتمع فيه تناقضات كبيرة . ثنائية بين الفكر والعمل . بين الطليعة والجماهير . بين الطموح والارادة . كل هذه التناقضات هناك مدخل واحد لحلها ، هذا المدخل هو النضال الذي يخلق الانسان العربي والامة العربية خلقا جديدا ، هو المناخ ، او الاجواء التي تسمح بابداع شيء جديد ، بخلق شيء جديد . بتكوين شيء جديد . فالخلق والابداع وكل ما يهيئ الشروط لهما ، هو المدخل للتخلص من زيف المرحلة السابقة . الابداع الفردي المقترن بابداع حالة اجتماعية جديدة ، والذي يصب على الشروط المساعدة على خلق حالة من الابداع في حياة الامة . الانسان العربي يتكون من خلال النضال ، والفكر العربي يتكون من خلال النضال ، وكذلك النفسية العربية . والمجتمع العربي يتبدل من خلال النضال . لذلك لا يمكن ايجاد مخرج لهذه الثنائية وهذا التناقض الا بتصعيد النضال في الوطن العربي ، وجعل الحياة العربية قائمة على اساس اعتبار النضال هو كالهواء والماء بالنسبة لشعبنا ، لان النضال ، كما يقول الرفيق القائد المؤسس (الاستاذ ميشيل عفلق) هو جوهر الامة ، جوهر الامة في هذه المرحلة من

حياتها خاصة ، لان التحديات التي تواجهها ، وعوامل النهوض لمواجهة هذه التحديات والانتصار عليها ، أيضا موجودة . لذلك فان المهم فقط هو القيادة التي تستطيع ان تترجم هذه الامكانيات ، وهذه الاجواء الايجابية باتجاه النضال الى مخطط علمي ، نضالي يوحد الطاقات العربية ، ويخلق مناخا لبيئة فكرية جديدة مبدعة تستطيع ان تغذي بالنضال ، وتغذيه ، وتجعل الامة ترتفع فوق ذاتها ، وتواجه مصيرها مواجهة واعية وحضارية . ومن هنا يظهر الفرق بين هذا المنظور ، مثلا ، والمنظور المعاكس الذي هو منظور التسويات السلمية الذي ينطلق من فكرة المصالحة مع واقع ينطوي على جرثومة القضاء على كل ما هو كامن في الامة وفي الانسان العربي ، من استعداد للتجدد والابداع والخلق والعباء الحضاري . والذي يفرض بالمستقبل وبما في الحاضر من امكانيات . ان مثل هذه النظرة التي لا تأخذ بعين الاعتبار هذه الامكانيات ، والتي هي تعبير عن افلاس نضالي انما تعكس الوجه النقيض للنهضة العربية المعاصرة ، لذلك فهي ، ايضا تعبير عن افلاس ثقافي . وربما ان ازمة الثقافة العربية تتجلى في هذا الجانب بشكل مأساوي اكثر من تجليها في أي جانب آخر .

* طيب ، ما هي نظرة الحزب للجدلية القائمة بين الادب والنضال ؟ وما هو المفهوم الذي يطرحه عن علاقة الادب بالواقع ؟

لان فكر الحزب اكد على مسألة الحرية . . الحرية كهدف اساسي ، وكمحرك نضالي في الحياة العربية . . هذه النظرة الى الانسان ، الى الامة كجوهر حضاري . . كذات حضارية واكتشاف طبيعة المرحلة العربية الراهنة وسياق الظروف الموضوعية لتطور المجتمع العربي ، وكون المرحلة التاريخية مرحلة ثورية ، مرحلة النهضة ، أي اهتمام الحزب بهذا الربط الجدلي بين الذات والموضوع هو اساس العلاقة بين الادب والنضال . فالنظرة الواقعية الثورية هنا تأخذ شكل مغالبة للواقع . . شكل تغيير الواقع . . شكل ابداع واقع جديد من الادوات السابقة القديمة مع حل تناقضاتها . ومن هنا نلاحظ ان الاديب الذي يمتلك الموهبة والامكانية على نقل هذه الحركة (حركة التطور المبدعة في النضال) الى صيغ تعمم اجواء النضال ، وتساهم في تغذيتها ، وفي انعاش الامل ، وفي تغذية النظرة المتفائلة .

فالعلاقة بين الادب والنضال جوهرها مشكلة الحرية ، والايامن بالحرية حرية المجتمع المناضل ، الجماهير المناضلة ، الانسان المناضل ، من اجل القضاء على الضياع ، الذي جاء به الاستعمار والتجزئة

والتخلف ، والذي هيمن على الحياة العربية طيلة قرون . لذلك فان جملة حقائق رئيسية تحكم علاقة الادب والنضال ، فالتحرر لا يكون شيئاً جدياً الا بالوحدة ، والوحدة لا تكون شيئاً الا بالتحرير ، والتحرير تفجير لكل طاقات الامة . فالنظرة الابداعية هذه التي تنكر النظرة الاستسلامية الواقعية ، والتقليد ، والبيغاوية ، وكل ما من شأنه ان يجعل الذات مجرد « مسجلة » للواقع الجامد ، الساكن ، ومجرد تصوير لهذا الواقع . هذه النظرة التي - كما قلت - تؤكد على الربط الجدلي الذي يذهب باتجاه جلاء الشخصية الانسانية ، واغنائها ، والقضاء على عوامل استلابها . وتحقيق شخصية الامة ، هو اساس الربط بين الادب والنضال .

* هنا تظهر معالم الدعوة لاقتران الادب والفن
بالفكر والحياة الفكرية . وقد اكد الحزب على
هذه النظرة ، وجسد جوهرها ..

جوهر هذه الدعوة قائم على حقائق علمية . . وليس على مفهوم مثالي . .

يمكن ان نستفيد من علم النفس ، ومن قوانين علم النفس في تأكيد اهمية هذا الربط بين الادب والفكر . . لسبب بسيط هو : ان في علم النفس ، بالاضافة الى الجانب التحليلي الذي يكشف علاقة الجانب الشعوري من الشخصية بالجانب اللا شعوري الفردي والجمعي ، وهو جانب هام جدا ، هناك أيضا جانب يتعلق بنظريات التعلم والادراك . في نظريات التعلم هناك ، مثلا ، المحاولة والخطأ . . وهناك التبصر او الاستبصار فكل تعامل جزئي مع الواقع سيجعل الاديب مهما كانت امكانياته الابداعية كبيرة ، كائنا مستلبا . . لسبب بسيط ، هو انه مغلق على ذاته ، وعلى واقع ضيق ، غير قادر على ان يتصل بالجمهير الواسعة . . وغير قادر على ان يكون صورة للامة في المرحلة الراهنة . .

فالفكر ، او الايديولوجية التي تعطي الخط العام للتطور ، وتربط الاديب بمرحلة النهضة ككل . . هذا الربط شيء مهم من أجل ان يأخذ الادب شكلا مبدعا ، وشكلا يفجر ابداعا في الامة

ويتعدى بينابيع الابداع التي هي ، في الواقع ، الفكرة العامة التي تلخص تقاطع القوانين العامة مع القوانين الخاصة للتطور في هذه المرحلة •• تطور الامة مع تطور العالم •• تطور الامة من خلال العلاقة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها ••

فالعودة الى التراث ، بالاضافة الى كونها تأصيل للشخصية الادبية والفنية ، هي فتح آفاق واسعة لبصيرة الاديب والفنان • وكذلك الاطلاع على الايديولوجيات ، أي على النظام الفكري الذي يفسر حركة التاريخ • ويحدد طبيعة المرحلة ، هو ايضا توسيع لمجالات الرؤيا • وقد حاول البعث ان يجسد هذه العلاقة وخاصة في نشأته الاولى •

* في كتاباتكم تؤكدون على ضرورة ان تأخذ الثقافة تيارات فكرية جماهيرية • هل لنا ان نستوضحكم اكثر حول هذا الموضوع ، لنقف عند ابعاد هذه الدعوة ؟

أيضا هذه الدعوة تستند الى نظرة جدلية الى علاقة الفرد بالمجتمع •• الى علاقة الفكر بالواقع •• الى علاقة الجانب النظري بالجانب العملي •• الى علاقة الجوانب الذاتية بالجوانب الموضوعية • فوحدة هذه النظرة الجدلية هي التي تؤكد على الثقافة اذا لم ترتبط بالجماهير ، فتأخذ شكلا محركا لطاقتها ، وتكون جزءا من تيارات حركة الواقع •• فان هذا الربط سوف يكون مهددا بقطع نسغ الحياة عن الادب والثقافة • فالثقافة التي لا تكون بينها وبين الجماهير صلة حية ، وتجاوب حي ، وقدرة على التأثير ، وعلى الدفع ، وعلى خلق آفاق جديدة لحركة الجماهير ، سوف لا تكون لها الا قيمة نسبية ، وقيمة سطحية بالنسبة لحياة الامة •

فالادب الحي والفن الاصيل ، هما اللذان يحققان في هذا العصر - الذي نسميه عصر الجماهير ، عصر وعي الكتل الكبيرة من البشر في القارات الثلاث - نوعا من وحدة الوجود بين ذات الاديب والفنان وبين هذا العصر ، وبين المشكلات المباشرة للجماهير التي تشكل حركتها قانونه الاساسي • وكما ان التيارات الجماهيرية

تفقد ثورتها بدون فكر ، كذلك فان الثقافة تفقد حياتها بدون جماهير ، وبدون التعبير عن اهداف النضال الجماهيري .

كلما استطاعت الثقافة ان تعبر عن هذه التيارات ، وان تستشف حركة الجماهير ، اصبحت ثقافة علمية ثقافة علمية ثورية بكل معنى الكلمة . . وهي لا شك سوف تكون اسيرة الطابع الذاتي للمثقف اكثر منها تعبيراً عن علاقة ذاتية - موضوعية بين المثقف والجماهير اذا اخذت شكل تيارات فكرية لا علاقة لها بحركة الجماهير . اي اذا لم يشعر المثقف بأنه جزء من كل ، وهذا الكل هو ، اولاً ، سلسلة تاريخية زمنية تصله بالماضي . . بالاجداد . . وهو ، بنفس الوقت شمول مكاني يتصل بوطن له حدود كبيرة وواسعة هي حدود الوطن العربي ، وله ارتباط بحركة جماهيرية تعبر عن دخول الامة العربية في مرحلة النهضة . . بدون هذه العلاقة ، ماذا يبقى للثقافة من ينابيع الحياة ؟ سوف تكون ترديداً لثقافات اخرى . . وعندئذ تتضاءل ينابيعها بالتدريج ، لان علاقتها بهذه الثقافة علاقة خارجية طالما انها لا تعيش في المجتمع الذي افرز تلك الثقافة . . فلا بد اذن ان تنضب ، وبالتالي ان تعيش عزلة مزدوجة وان تفقد الصلة بالواقع الذي تعيش فيه ، وبالواقع الذي نقلت منه ثقافتها .

* في مقالة للاستاذ ميشيل علق يذهب مؤكدا :
« ان حركة البعث العربي لا غنى لها عن فلسفة عامة في الحياة . . فهي حركة تقدمية ، تحررية ، وهي بذلك حركة عميقة تتصل بالمفاهيم الانسانية » . وعلى هذا فان الاستاذ ميشيل يشدد على انه « لا بد للحركة من نظرة اخلاقية ، ونظرة فلسفية عامة في الكون وفي الانسان » .

تري ، على أي نحو يمكن تمثيل هذا على صعيد الابداع . في الادب والفن ، لكي نصل الى ادب وفن يتصلان ، بدورهما ، بجوهر هذه النظرة الى الكون والانسان ؟

هذا النص الذي ورد في مقاله « الحركة الفكرية الشاملة » يمكن ان تتبين - الى جانبه - في الفترة نفسها ، فترة الخمسينات ، تعبيراً آخر للقائد المؤسس يقول فيه بأن فلسفة البعث تلخص في الكلمة التالية ، وهي : « ثقة الامة العربية بنفسها » . فهنا لا يقصد بالفلسفة « النظام الفلسفي » . . لا يقصد بها « الصيغة الفلسفية المغلقة » على غرار الفلسفات المعروفة في تاريخ الفكر الفلسفي ، والتي انتهى « كارل ماركس » الى ان وصفها بالبؤس ، وبأنها بأئسة ، لانها تنتهي بصياغة وصفية ، ولا تشكل دليلاً للعمل . كارل ماركس اراد ان يحول الفلسفة الى دليل عمل ، فكانت

« المادية التاريخية » • الا ان كارل ماركس بقي ضمن اطار « الصيغ الفلسفية » (المادية الجدلية) • • ضمن اطار « المذاهب الفلسفية » • • المقترنة جزئيا بالعلم والعمل من اجل تغيير الواقع الاجتماعي •
« فكر البعث » خرج من اطار « الصيغ الفلسفية » المغلقة •
فلسفته تتلخص في : نظرة شمولية الى الامة العربية • فالامة العربية امة واحدة ، ولها قضية في هذا العصر ، هي ، أيضا ، قضية واحدة متعددة المضامين • فقضيتها هي الوحدة ، وهي الحرية ، وهي الاشتراكية •

هذه النظرة الشمولية اقترنت بتحليل لبنية الواقع العربي ، وللتناقضات الاساسية التي تشكل هدف النضال العربي الآن : تناقض التجزئة يطرح هدف الوحدة ، تناقض الاستغلال الطبقي يطرح الاشتراكية • تناقض التخلف ، أيضا • • تناقض الاستعمار والصهيونية يطرح فكرة الحرية ، وهذه التناقضات ليست منعزلة عن بعضها • • لذلك فالقضية العربية واحدة ، وبالتالي : فان وحدة الشمول والتضمن (المحتوى) • • وحدة النظرة الشاملة مع النظرة التحليلية الداخلية العميقة • • النظرة التركيبية القائمة على نظرة تحليلية تعتمد منهجا جدليا علميا تاريخيا • • هي ، في الواقع ، ما يلخص فلسفة البعث •

أما كيف نعبر عنها على صعيد الادب ؟ كيف يكون الادب

تعبيرا عن هذه الفلسفة ؟ فقد سبق واشرنا الى ان الادب اذا ارتبط بالايديولوجية العربية الثورية ، فانه يكون قد ارتبط بالآفاق النظرية والعملية لحركة الجماهير العربية • فباتصاله بالاهداف المحركة للنضال الجماهيري في الوطن العربي ، اهداف الوحدة والحرية والاشتراكية ، يكون قد اتصل بينابيع الابداع والحضارة التي تكمن في المرحلة التاريخية الراهنة • بالنضال الوحدوي ، يمكن له ان يكشف عن فلسفة الامة العربية في هذه المرحلة ، وهي فلسفة ذات طابع حضاري ، فيها جوانب خلقية ، الا ان فيها أيضا ، نظرة علمية الى هذا العصر ، لان هذا العصر هو عصر الوحدات والتجمعات •

كذلك الامر ايضا على صعيد الاشتراكية • •

صحيح ان الاشتراكية هي حل لمشكلة التناقض الطبقي ، وحتى لمشكلة التخلف على صعيد المجتمع العربي ، الا انها ، في نفس الوقت ، ليست مجرد تعبير عن حاجة • • هي عملية ربط الامة العربية بالعصر الذي تعيش فيه ، والذي هو عصر الاشتراكية • • فهناك تخلف يكون مزدوجا ، عن الماضي القومي وعن حاضر العالم ، اذا بقينا ضمن اطار النظام الرأسمالي ، والتطور الرأسمالي • •

فالاشتراكية كهدف تتضمن فكرة المعاصرة أي الانتماء الى العصر ، كما تتضمن فكرة الانتماء الى العالم الجديد ، العالم

الاشتراكي ، وكذلك فكرة الانتماء الى عالم الثورة الجديدة في العالم ، ثورة الامم الكادحة المناضلة من اجل الحرية والوحدة .

أيضا ، على صعيد الحرية والتحرر . هنا ، أيضا ، سوف لا يكون الاديب قادرا على التعبير عن فلسفة الامة العربية اذا هو اكتفى بهدف التحرر القطري ، لسبب بسيط ، هو : ان الاستعمار قادر على ان يطوق هذا التحرر . التحرر الوحيد الذي لا يستطيع الاستعمار ان يستوعبه هو تفجير طاقات الامة العربية عن طريق النضال . . أي هدف التحرير . . وهدف الثورة الدائمة في حياة الامة العربية للقضاء على كل التناقضات الاساسية التي تؤدي الى استلاب الشخصية العربية على الصعيدين الاجتماعي والانساني الفردي .

أيضا ، نلاحظ هنا ان فلسفة الامة العربية يمكن ان تنعكس في الادب من خلال هذا الربط بين نضال الجماهير العربية ، وآفاق هذا النضال .

الفلسفة هي استشراف . . هي بصيرة للاديب ، وللجماهير ، وللامة ككل . فالادب يعكس فلسفة الامة العربية كلما استطاع ان يعكس حركة الواقع العربي . . وحدة هذه الحركة وعمقها ، وان يرتبط بفهم عميق لقوانين هذه الحركة . هناك قانون عام يجعل العالم يتجه باتجاه الثورة التكنولوجية . هناك قانون

خاص يجعل الامة العربية بمجرد وعيها للتجزئة تتحرك باتجاه الوحدة ، وتناضل ضد التخلف باتجاه التقدم . . ضد الاستعمار والصهيونية باتجاه التحرير وباتجاه التحرر .

اذن هناك حركة ما . .

هذا الربط بين حركة العالم وحركة الامة هو ما يشكل الفلسفة التي يمكن للاديب العربي ، من خلالها ، أن يكون انسانا عربيا ، ومعاصرا ، مبدعا .

* للحزب نظرتة الوحديوة ومفهومة الاشتراكي .
ولا شك ان ما يفترض بنتاج الاديب البعثي هو
ان يصبر عن هذه النظرة ، وينطلق من هذا
المفهوم . فهل لكم ان تحددوا لنا ، وبشيء من
التركيز ، نظرة الحزب الوحديوة ، ومفهومه
الاشتراكي ؟

الواقع ، ان مفهوم الوحدة والحرية والاشتراكية في الحزب
قد خضع لتطور . . فهو ليس صيغة جامدة ، لسبب بسيط ، هو
ان منهج فكر الحزب ، بالاصل ، كان منهجا جدليا علميا تاريخيا . .
لم يكن جدلا فلسفيا ماديا ، بالمعنى الفلسفي المغلق ، انما كان منهجا
جدليا علميا تاريخيا ، لذلك ، منذ عام ١٩٥٠ ، يحاول الرفيق القائد
المؤسس في مقالته : « النظرة الحية الى الحزب » ان يشدد على
ضرورة النظرة الحية الى الفكر والتنظيم ، والنظرة الحية الى الحياة ،
وتجنب الصنمية : الصنمية في الافكار ، والصنمية في المواقف ،
وفي الانطباعات عن الاشخاص . لذلك فان مفاهيم الوحدة
والحرية والاشتراكية اغتنمت بالتجربة العربية خلال تطورها ، لسبب
بسيط ، هو ان فكر البعث . . آيدولوجية البعث لم تنفصل عن
استراتيجياته ، ولا عن تكتيكاته ، ولا عن تنظيمه ، ولا عن معاناته
اليومية . ومن هنا كان اغتناؤها بهذا النضال باستمرار . .

المهم . . والشيء الاساسي في الموضوع هو ان المفهوم العلمي

الثوري للوحدة العربية الذي انطلق منه البعث . قد انقذها من
الطوباوية ، وذلك بربطها بمفهوم طبقي ثوري . . بمعنى ان الوحدة
هي ثورة اشتراكية . . هي ثورة جماهير وحدوية وهو قد ربط ،
أيضا ، الاشتراكية بالوحدة ، لان « الاشتراكية القطرية » لا يمكن
ان تكون ثورية ، ولا يمكن ان تكون واقعية . . فعلاننا هو عالم
القطاعات الكبرى . . لذلك لا يمكن ان تتحقق الاشتراكية
ضمن اطار اقتصادي ضيق . هذا شيء من طبيعة العصر ، وبالتالي ،
فهو شيء مقرر علميا ، وهو الذي يدفع اوربا لان تصبح وحدة
اقتصادية ، وهو ذاته الذي يدفع قارات (كأمريكا اللاتينية ،
وافريقيا . . وايضا في شرق آسيا) للتفتيش عن مجالات كبرى
للتصنيع ، وللتسويق . . فالصناعة والتصنيع وتطور التكنولوجيا
يفرض هذه الاطر الواسعة للحياة الاقتصادية . لذلك فان معطيات
الواقع القومي والعالمي ، والتحليل العلمي الجدلي التاريخي لهذه
المعطيات ، في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، تؤكد ان مفهوم
الحزب الوحديوي الاشتراكي هو مفهوم علمي جدلي تاريخي ،
يأخذ بعين الاعتبار ان الوحدة ضمن اطار الحياة المعاصرة لا يمكن
أن تتحقق بدون جماهيرها الوحديوة التي هي وحدها صاحبة
المصلحة الاشتراكية وهي وحدها الضامنة للحرية .

فالمفهوم العلمي الثوري للوحدة والحرية والاشتراكية هو
الذي انقذ هذه المفاهيم من النزعة التجريبية التي تحاول ان تسيء

بنضال ليس له خلفية فكرية .. وكذلك ، انقذ الفكر العربي من النزعة الفلسفية الجامدة التي تجعل كل تفسير لحركة الواقع ضمن اطار مقولات نظرية معدة سلفا .. تسبق الواقع وتفرض نفسها عليه .. فهي اشبه بالقوالب .

فكر البعث استطاع ان يتجاوز هذين المستويين السابقين اللذين كانا يحولان دون الرؤية العلمية الثورية للواقع العربي . فالوحدة الآن هي محرك للنضال ، وهي هدف لهذا النضال .. فهي ليست تنسيقا للتجزئة .. هي خلق جديد .. خلق المجتمع العربي ، والنفسية العربية ، وعقلية الوحدة ، ونفسية الوحدة الجديدة .

وكذلك فيما يتعلق بالاشتراكية . هي رؤية تقدمية، معاصرة، حديثة ، تأخذ بعين الاعتبار البنية الطبقيّة للواقع . فالمفهوم القومي الطبقي .. المفهوم القومي الثوري هو الخلاصة المركزة لفكر البعث، كما كشفت عنه كتابات الحزب وتراثه الفكري ، والكتاب التي حاولت ، بنفس الوقت ، أن تستعرض تطور هذا الفكر ، وتشير الى آفاق تطوره في المستقبل ..

* هذه النظرة الشمولية (للاوضاع والمجتمع والامة) التي توفر عليها فكر البعث .. يبدو ان الادب والفن لم يتوصلا اليها بكامل ابعادها . براكيم ما هو السبيل لان نجعل منها موضوع استقطاب : ادبي وفني ؟

اذا اخذنا نشأة فكر البعث في المرحلة التي سبقت ١٩٤٠ (لاننا نعتبر المرحلة بين ١٩٤٠ و ١٩٤٧ هي مرحلة التمهيد) مع هذه المرحلة التمهيدية بدأت وحدة الفكر والممارسة . اما قبل ١٩٤٠ ، فاننا نلاحظ انه لم تكن قد نضجت عوامل بداية حركة البعث .. لذلك كان هناك فكر مطروح بدون نضال منظم يقترن بهـا ويجسدها .. كما نلاحظ ان هناك طابعا ادبيا على كتابات الحزب، موجود في كتابات الرفيق القائد المؤسس .. وهذه الكتابات كانت لها صيغ تعطي مؤشرات لفكر تقدمي .. لفكر قومي .. لكن ، ليس فيه تبلور واضح بمعنى الايديولوجية المتكاملة .

عندما تبلور هذا الفكر عبر المعاناة ، ودخل مرحلة الارتباط بين الايديولوجية والستراتيجية والتكتيك ، لاحظنا ان الاهتمامات الادبية قد تراجعت ، وحلت محلها المشاغل السياسية .. مشاغل النضال .. ولم ينشأ جيل من الكتاب الادباء ومن الفنانين في البعث يستطيع ان يواكب هذه الحركة السياسية النضالية ، لانها كانت متسارعة ، وكانت تأخذ كل اوقات المناضلين .. حتى صاحب

المواهب الادبية نلاحظ ان موهبته اصبحت جزءا من هذا التحرك
الشامل . فالنضال العملي ، وحاجات هذا النضال ، ومتطلباته لم
تكن تسمح بهذا النوع من الفرص اللازمة والكافية للتأمل ،
ولصياغة التجربة النضالية صياغة ادبية وفنية . واعتقد ان قسما
من هذا التخلف عن مواكبة حركة النضال اليومية سببه ان الادباء
خارج الحركة الثورية . . خارج الحركة النضالية ، ما يزالون
يشكلون نسبة كبيرة جدا . هناك مواهب كثيرة تذهب دون ان
تصب على هذه الحركة الجماهيرية النضالية في الوطن العربي .
لذلك فان العلاج يكون بمعرفة السبب .

والسبب لا يكون دوما في الادباء والفنانين ، بل قد يكون
أيضا في السياسيين والاحزاب السياسية التي لا تضع الادب والفن
في صلب اهتماماتها .

كيف تتيح لأكبر عدد ممكن من اصحاب المواهب ان يكونوا
جزءا من هذه الحركة ؟ وهنا تكون لنا مشكلتين :

- مشكلة راهنة تتعلق بمن اصبحوا ادباء . . .
 - ومشكلة مستقبلية بمن سوف يصبحون . . .
- ولكل واحدة طريقة في المعالجة تختلف عن الثانية . . .
بالنسبة للمستقبل بأن نتنبه الى التربية ، وضرورة تصحيح

مناهج التربية والنظام التربوي ، بحيث يؤمن هذا الربط ولو بشكل جنيني ، بين صاحب الموهبة الادبية وبين حياة الجماهير ونضالها . أما بالنسبة للجانب الاول - اعني الادباء الجاهزين الآن البعيدين بمواهبهم عن الحياة السياسية - فيجب ان نهى لهم الفرص لكي يمارسوا هذا الربط من خلال الاتصال المباشر بالقضايا الاساسية للقتال الجماهيري ، وان يدركوا ان من مصلحتهم ، كأفراد ، ان يربطوا فكرهم ونشاطهم الادبي بحركة الامة . وعندئذ يمكن ان تتحقق لهؤلاء وللامة ، افضل النتائج .

ان كل اديب وفنان يملك هذا الاستعداد . والمهم ان نفهم الانسان فيهما حتى تتمكن من دفع الاستعداد الى حدود الالتزام .

* كيف تعبرون عن الثورة العربية كحقيقة حضارية ، وكجوهر لايدولوجية ثورية ؟

- يندرج مفهوم الثورة العربية ضمن اطار المفاهيم الجديدة للثورات التحررية بعد الحرب العالمية الثانية ، التي ظهرت مرافقة ومسهدة لتجارب التحرر القومي في القارات الثلاث ، الا ان مفهوم الثورة العربية ، بالرغم من كونه جزءا من تيار عام عالمي ، فانه يكتسب خصوصية تميزه وتجعله يتمتع بسبق زمني ، وببعد حضاري ، لانه كان تعبيرا عن بدء تبلور الافكار مرحلة النهضة العربية التي بدأت بوادرها منذ نصف القرن السابق . لذلك فان مفهوم الثورة العربية يعبر عن معاناة فكرية وعملية تمتد على ما ينيف عن قرن للامة العربية ، وهي معاناة تستدعي الصلة بقطين اساسيين للحياة وللشخصية العربية ، وهما : ماضي الامة نفسه ، وحاضر العالم المعاصر . أي بين مرحلة الانحطاط الراهنة وبين حضارة الامة في الماضي . ثم بينها وبين العالم الذي يفتش اليوم عن حضارة جديدة ، لذلك كان لا بد لمفهوم الثورة العربية ان ينطوي على بعد حضاري . يستوعب حاجات النهضة العربية في المرحلة الراهنة ، ويستوعب الصلة الحضارية بالماضي والمساهمة الحضارية في بناء الحضارة الجديدة لعالم اليوم .

الا ان « المفهوم الحضاري » للثورة العربية هو ، بدوره مفهوم ثوري . لذلك فهو لا يعني العودة الآلية الى حضارة الامس ،

ولا التفتيش السهل والانتساب الى حضارة معاصرة فقدت ، او كادت تفقد رسالتها الحضارية . بل بقي المنظور الثوري هو الاساس في تصور العلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل ، ومن هنا اكتسب الحاضر كثافة خاصة في مفهوم الثورة العربية ، لان نقطة الالتقاء بين سلسلتين من جدلية ما تصنع للمراحل التاريخية ولمسيرة التاريخ ، وهما : العوامل الموضوعية ، والعوامل الذاتية .

وبهذا المعنى فان الثورة العربية هي استيعاب لهذه العوامل من اجل وضع قوى الامة العربية الكامنة والمهدورة والمسلوقة ، في حالة مخاض جديد تنتج عنه ولادة مرحلة جديدة من التطور ، تجدد ، من خلالها ، الامة العربية ذاتها ، وتتجاوز اوضاعها ونفسها بحل التناقضات الاساسية الكامنة فيها وفي هذا الواقع ، حتى تستكمل القدرة على التعبير عن شخصيتها الحضارية ، ويستكمل الواقع العربي شروط وحدته وحرته ونظامه الاشتراكي .

فمن هذا المنظور يكون مفهوم الثورة العربية اساسا للايدولوجية العربية الثورية ولاستراتيجيتها ، وحتى لخططها المرحلة الظرفية .

* ومن هنا اكتسب « البعث » خصوصية نظرته،
التي اختلف فيها عن الطروحات الاخرى ؟

— في بداية نشوء الحزب كانت المسافة كبيرة جدا بين نظرة
البعث للتراث وبين نظرة الايديولوجيات التي كانت قائمة قبل نشوء
الحزب • (الايديولوجية الدينية ، والايديولوجية الماركسية)
والمحاضرة التي القيت في حلب عام ١٩٥٥ حول « نظرنا الى التاريخ
العربي » تشكل وثيقة تاريخية ، بالاضافة الى الكتابات التي سبقتها
منذ محاضرة « ذكرى الرسول العربي » (عام ١٩٤٣) ، الا ان
هذه الفروق ضاقت بسبب القوة التي اكتسبتها افكار البعث ، جراء
التطورات الفكرية وتطور التجارب في العالم الاشتراكي • وفي
العالم الثالث ، التي جاءت معززة لتلك الافكار ، ولنظرتها الجدية
العميقة للعلاقة بين الماضي والحاضر والمستقبل على الصعيدين
القومي والعالمي •

الا انه بالرغم من هذا التطور الايجابي الذي جعل الاهتمام
بالتراث شيئا أقرب الى البديهيات ، وكذلك الافتتاح على التطور
العالمي في النظرية والتطبيق ، فان البعث ما يزال يتميز بخصوصية
يمكن ان نوجزها بكلمة « منظور حضاري » الى الماضي والسى
المستقبل • فنقطة الافتراق بينه وبين النزعات التقدمية الاممية
هي اعتباره ان التراث ليس فقط ينبوعا من المعرفة ، أو مجرد بعد

تاريخي لا بد من الاستئناس به والرجوع اليه ، وليس « حافظة »
للكرى او عبرة للتذكر ، بل هو حياة •• فنحن امام التراث كما نحن
امام مراحل حياتنا وتطورنا منذ ولادتنا حتى اللحظة الراهنة ، وحتى آخر
ومضة من حياتنا في المستقبل • فهو امتداد لشخصيتنا في الماضي ،
كما سيكون المستقبل استظالة لحياتنا الحاضرة • فالمسألة لم تعد ،
حسب هذا المنظور ، مسألة حاجة الى اطلاع على التراث ، أو
استيعابه بالذهن ، بل هي مسألة كيف نعيش هذا التراث ، لان
الانقطاع الذي حدث هو بتر للشخصية القومية •• وسوف يبقى
الانحراف في الشخصية القومية ما لم نعش التراث من جديد بنفس
الروح التي ابدعته •• أي بالروح الثورية التي تجدها في واقعنا
القومي الراهن كل الشروط والدوافع والاهداف لكي تتحقق
وتبدع ، عن طريق القراءة الثورية لتراثها الماضي ، تراثا جديدا
لا يقل روعة ، ولا تقل الحضارة الانسانية الحديثة حاجة اليه من
الحضارة الانسانية قبل ثلاثة عشر قرنا •

كذلك الامر في الطرف الآخر المتعلق بحاضر ومستقبل البشرية
اليوم فتراثها يشكل نقطة جذب لمفهوم الثورة العربية المعاصر ،
الا انه جذب بالمعنى الحضاري ، لان التفاعل مع الحضارة من
مواقع الانحطاط انكفاء وترد ، وعبء مزدوج على الحضارة وعلى
الانحطاط معا • لذلك فان التفاعل الحضاري العالمي يحتاج الى
عمليات صمود حضارية • ومن هذه الزاوية كان مفهوم النهضة

العربية هو الجسر الذي يصل واقع الامة العربية بالتقدم الحضاري المعاصر . ومن خلال ذلك يتبين البون الذي ما يزال شاسعا ، والاختلاف النوعي في نظرة الايديولوجية العربية الثورية الى كل من الماضي والمستقبل ، لانها نظرة ترفض الانغلاق على الماضي ، كما ترفض أن تكون عبئا على مستقبل الحضارة ، ترفض قول (ابن المقفع) : « ما ترك الاول للآخر » ، وتنسجم مع قول الجاحظ : « كم ترك الاول للآخر » . ترفض النظرية التي تحجب الواقع ، لانها تكون نظرتها الثورية الحضارية من خلال استيعاب تناقضات هذا الواقع مع ماضي الحضارة ومستقبلها ، في آن معا ، فهي لا تنطلق من الماضي المستقل عن حركة الزمن ، وترفض ان يكون الماضي هو قطب الزمن . . كما ترفض ، في الوقت نفسه ، ان يكون المستقبل مقطوع الجذور عن الماضي . . لانها ترفض الذكرى التي تجسد الحياة ، وترفض الخيال الذي يبقيها في الحلم ، فالحاضر هو مركز اهتمامها ، والصلة الجدلية بين اطراف « المعادلة الزمنية » هي الاساس ، وشفافية الفكر في تعبيره عن المرحلة التاريخية والواقع القومي الملموس والمشخص هو الاساس ، وهو الجوهر الذي تقوم عليه .

* يربط البحث ، دائما ، بين هذه الثورة ، كحقيقة وجوهر ، وبين وجوب انطلاقها من القاعدة الجماهيرية ، لماذا ؟ وكيف ؟

— مفهوم الثورة العربية يرتكز الى فهم جديد للواقع وللشخصية العربية قائم على منهج فكر جديد ساعد على الانتقال من مرحلة الى مرحلة جديدة . منهج الفكر الجديد هذا هو المنهج العلمي الجدلي التاريخي الذي يتميز عن المنهج الفلسفي الجدلي وعن مناهج الفكر التقليدية الصورية في كونه ينطلق من تحليل بنية الواقع العربي ، وواقع الشخصية العربية الراهنة من أجل تحديد المرحلة التاريخية لتطور المجتمع العربي ضمن اطار التطور العام للعالم . وقد كانت الثمرة الاولى لتطبيق منهج جديد كهذا هو اكتشاف « الذات العربية » من جديد ، واكتشاف العلاقة الجدلية بين جملة التناقضات الراهنة في المجتمع العربي وتحديد مهمة التطور التي تمر بها الامة العربية ، ومرحلة النهضة . لذلك كان مفهوم الثورة العربية مفهوما علميا جديدا تاريخيا نابعا من مماناة داخلية انبثقت من حركة الجماهير العربية نفسها . لذلك فان الجماهير العربية في وعيها لتناقضات واقعها ، وفي تحديدها لاهداف نضالها انما تنضج مفهوم الثورة العربية الذي هو مفهوم منفتح متطور مغتن بالخبرات الجديدة ، وبالدروس المستقاة من نضال الجماهير العربية نفسها ، فالجماهير لم تعد ، حسب المنهج العلمي الجدلي التاريخي ، مجرد كم ، ولا مجرد علاقات موضوعية

* وما الفرق عندكم بين ان تكون هذه الثورة
انطلاقا من قاعدة جماهيرية ، وبين ان تكون
« فكرة » تتلقاها هذه القاعدة ؟

— الفرق هو تماما كالفرق بين الانسان والآلة في علاقتهما
بالمعرفة . الكمبيوتر في عالمنا المعاصر يختزن من المعارف ما يسمح
له بأن يصبح « عقلا الكترونيا » . والعقل الالكتروني يتغذى
بالمعلومات ، الا انه لا يتمثلها . لذلك فهو لا يستطيع ان يبدع
شيئا جديدا . يستطيع ان يختصر ، وان يكثف ، وان يلعب دورا
مذهلا في تركيب العناصر التي تحتفظ بها ذاكرته ، الا انه لا يستطيع
ان يساهم في تطوير وفي ابداع المفاهيم ، لانه « وعاء للمعرفة » .
وعلاقته بمحتوياته علاقة آلية بحتة .

والنظرية التي تهبط على الافراد من فوق تحولهم الى شيء
شبيه بهذا « الكمبيوتر » . هذا في احسن الاحوال . فالافكار
تتحول الى الفاظ ، والمفاهيم تتحول الى شعارات ، والوعي يتحول
الى الذاكرة ، وحركة الفكر تتحول الى نصوص ، والتوتر الذهني
يتحول الى آلية التكرار ، والافتتاح على المعرفة يتحول الى انغلاق ،
وتعصب ، ويموت الحس النقدي وتقتل الموهبة ، تماما كالامطار
في غير موسمها ، وكالافكار كالأشجار التي تحجب الواقع ، وكالأشجار التي
تحجب الغابة . فالافكار كالأشجار ، جذورها في الارض وليست
في الهواء . لذلك فان هناك فرقا بين عملية الزرع وعملية التطعيم،

تحكم ارتباط طبقاتها وفئاتها وافرادها ومؤسساتها ، او تحكم
ارتباطها بالطبيعة ، بل اصبحت الجماهير طاقة نضالية عطلتها ظروف
التجزئة والتخلف والاستعمار والصهيونية والاستغلال الطبقي ،
لذلك فان فكر الثورة العربية ليس الا تعبيرا عن ضيق هذه
الجماهير العربية بهذا الوضع المتناقض مع حقيقتها التي عبرت عنها
في الماضي باشكال ما تزال راسخة في ذاكرة البشرية وفي ضمائر
أبناء الامة العربية ، كما ان فكر الثورة العربية يعبر ، بالإضافة
الى هذا الضيق بالواقع المتناقض والتمرد عليه ، عن وعي لاسباب
هذا التناقض ، ولاهداف النضال من أجل تجاوزه .

اذن ، لا يمكن ان تتصور ، بشكل من الاشكال ، مفهوم
الثورة العربية مجردا عن هذه المعاناة الجماهيرية . . . فهو ليس نظرية
مجردة ، او منقولة من سياق تاريخي آخر ، او مجرد ثقافة يمتلكها
عدد من المفكرين ، بل هي مخاض يشهد يقظة بعد غفوة وغيوبة
طويلتين عن مجرى التاريخ الحي ، ومعاناة تاريخية يشترك فيها
البعد التاريخي مع الزمن الحاضر مع التطلعات الى المستقبل ،
ويتداخل فيها الشعور الجمعي بالاشعور والوعي بالبصيرة ليتألف
من ذلك كله ولادة جديدة للشعب العربي والامة العربية . . . ولادة
نضالية تحققها الجماهير العربية الكادحة بنضالها لتستعيد دورها
في الحياة الانسانية ، وتستأنف مسيرتها الحضارية عبر التاريخ ،
فمفهوم الثورة العربية هو تحقيق الذات العربية ، والجماهير هي
ما في هذه الذات من طاقة جديدة مبدعة .

الافكار تولد ، كأى كائن حي ، لذلك لابد ان يكون هناك من شروط التكوين ما يتلاءم مع حاجات نمو الكائن ، لذلك شدد فكر الثورة العربية على المعاناة .. على الانبعاث من الداخل .. على اثبات الفكر من النضال ، حتى تكون الصلة بين الفكرة وبين حاملها كالعلاقة بين الام وطفلها .. حتى تكون لنا ، نحن العرب ، افكار وصلنا اليها بالجهد والتعب والمشقة .. حتى تكون افكارنا وحتى يكون التزامنا بها مصيريا ، وحتى تكون هذه الافكار جزءا من عملية انبعاث الشخصية العربية من جديد .

منذ عام ١٩٤٣ اعتبرت حركة الثورة العربية رفض الفكر المجرد شرطا للتخلص من امراض ثقافية كانت تجعلنا ننظر الى امتنا العربية وواقعها « نظرة غربية » ، اي نظرة الانسان المستعمر .. نظرة الانسان المسلوب الشخصية .. كما اعتبرت رفض التفكير المجرد شرطا لاكتساب نوع جديد من الثقافة ، هي الثقافة النابعة من القاعدة ، من التراث بمفهومه الثوري الحضاري ، ومن النضال بمفهومه الوحدوي التحرري الاشتراكي ، ومن التفاعل الحر مع الثقافات الثورية والحضارية في عالمنا المعاصر .

* كان ميلاد الحزب ، بفكره هذا في وجود تيارين :
تيار فكر عصر النهضة الاصلاحي ، والفكر
الماركسي الذي كان يأخذ امتداده . كيف كان
الموقف منهما ؟ وكيف ميز الحزب نفسه
عنهما ؟

— نظر التيار الجديد الذي يعتبر جنين الايديولوجية العربية
الثورية الى هذين التيارين نظرة تنطوي على جانب ايجابي
النظرة الحديثة المعاصرة الثورية في التيار الاشتراكي .
يتمثل بالتعاطف مع النظرة التراثية في فكر عصر النهضة ، ومع

الا ان هذا التعاطف بقي ضمن حدود ، لان التيار الجديد ،
تيار الفكر القومي التحرري الثوري قد اكتشف طريقا جديدة ،
كشفت له جوانب النقص الاساسية في التيارين السابقين ، والحاجة
الى تجاوزهما الى نظرة اكثر علمية وجدلية وافق تاريخي ، لذلك
طرح التيار الجديد مسألة التراث طرحا جديدا ، وكذلك ، أيضا ،
حدد منظورا جديدا للاشتراكية ، أساسها النظرة الجديدة الى الامة ،
والى العالم . لذلك كان لابد ان تكون هناك نظرة جديدة الى
التراث ، اي الى البعد التاريخي لحياة الامة . ومنظورا جديدا
للاشتراكية اكثر عمقا في استجلاء واقع الامة العربية الراهن ، وصورة

العالم المعاصر .. هذا العالم الجديد الذي ولدته الحرب العالمية الثانية ، والذي يفتش عن حضارة جديدة •

فأساس النظرة الجديدة الى الامة والى هذا العالم هو : التحول عن النظرة الخارجية الى الامة ، والاعتماد على المفاهيم الغربية .. أي وعي المرحلة التاريخية العربية وعيا مشوها ، والدخول في طور جديد هو : النظر الى الامة من داخلها بعين عربية مفتوحة على العالم ، الا انها ثابتة في مجارها .. أي : وعي الذات العربية عبر اكتشاف هذه الذات وليس عبر تطبيق الصور الغربية للحياة •

وقد كان التياران ، الليبرالي والاشتراكي ، متأثرين الى حد بعيد بالنظرة الغربية • لذلك لم يتمكننا من اعطاء مفهومي الحرية والاشتراكية بعدهما القومي التحرري .. ولم يتمكننا من ربط هذين الهدفين الاساسيين بجذورهما الاجتماعية والقومية .. أي تناقضات الواقع العربي وشبكة العوامل التي تجعل من المرحلة العربية جسر انتقال بين عصرين للامة العربية : عصر الانحطاط وعصر النهضة .. وفشل التيار الاصلاحى التقليدي في تحقيق الموازنة بين نظرتيه الى الماضي ونظرتيه الى المستقبل ، كما فشل التيار الاشتراكي الطوباوي الاممي ، بالرغم من كل ما اسبغ على نفسه من صفات

العلمية والثورية ، في ربط الفكرة الاشتراكية بمسيرة النضال العربي • فكان لا بد من ان تطرح مرحلة التطور في هذا النضال العربي ، في مرحلة الاربعينات ، الحاجة الموضوعية الى تجاوز النزعتين اللا قومية اليمينية ، واللا قومية اليسارية • فكان المفهوم القومي اليساري ذو الطابع العلمي الثوري الحضاري الذي يستدعي الماضي ويضع التراث في صلب عملية الانبعاث في الحاضر بدل ان يعود الى الوراء عودة منكفئة تشكل عبئا مزدوجا على الماضي والمستقبل •

* العلاقة بين الفكر الثوري والعمل الثوري ، في تجربة الحزب النضالية .. كيف كانت بالامس؟ وكيف هي اليوم؟ وهل حصلت متغيرات اساسية في هذه العلاقة؟

— طبعاً هناك تبدلات ناجمة عن طبيعة التطور الذي مر به الحزب ، من حركة يغلب عليها طابع العمل الفكري الى حزب سياسي وجد نفسه تحت ضغط الظروف القومية المتسارعة مسؤو ولا عن السلطة . وحاكما في اكثر من قطر . فالانتقال من هذه المرحلة الى المرحلة الجديدة هو الذي جعل الحزب يتلمس اكثر في مؤتمراته القومية ، تحقيق الصلة بين الايديولوجية والاستراتيجية والتكتيك .. كما ان تجربة الوحدة والافتصال قد جعلت الحزب يهتم أكثر بموضوع الصلة بين « الفكرة القومية » و « التنظيم القومي » .. كما ان المؤامرات التي تعرض لها الحزب بعد ان لمست الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية خطر الحزب على وجودها ومصيرها في الوطن العربي ، قد دفعت الحزب الى ان يركز اهتمامه على ضرورة واهمية التخطيط للمستقبل والتوجه نحو الدراسات السوسولوجية التحليلية .. وكذلك التطوير في الاساليب والوسائل التنظيمية حتى تكون خطواته السياسية ، وصلة الطبيعة الثورية بالجماهير متكافئة مع الاخطار التي يواجهها الحزب . كذلك نلاحظ بدء اهتمام الحزب بتطوير نظريته واهتمامه بالناحية الاعلامية

وبقطاعات كانت على هامش حياة الحزب .. فبدأت تدخل الى مركز حياته .. كالقطاع الفني ، ونضال المرأة . وقد كان للسمة الاساسية التي يتميز بها فكر البعث ، وهي: نظريته الحية الى الحزب ، ونظريته العلمية الثورية الى فكرته نفسها ، وايمانه العميق بالطاقات المختزنة التاريخية في الجماهير العربية .. كل ذلك قد جعل النظرة النقدية الحية نشيطة داخل حركتنا التاريخية ، كعامل في كشف جوانب الخلل في العلاقة بين الفكر والتطبيق .. بين المعاناة الفكرية وبين الممارسة العملية .. لذلك فان تطور الحزب يؤشر ، في خطه العام ، عملية اغناء دائمة للتجربة الفكرية والعملية للحزب ، وتجعل من تطوير النضال واساليب النضال ، على الصعيدين الايديولوجي والسياسي ، ينبوعاً واحداً لكل الروافد المتعددة التي تغتني بها حياة الثورة العربية .

* وماذا أعطى هذا التبديل لحركة الثورة العربية،
على صعيدها كحركة ، أولا ، وعلى صعيده
تطورها في مسارها الواقعي ، ثانيا ؟

— اذا حاولنا ان نرسم خطا بيانيا لتطور الحركات السياسية
في الوطن العربي ، منذ الثلاثينات حتى اليوم ، نلاحظ بروز ظاهرة
موضوعية تلفت النظر ، وهي ان حركة البعث تشكل ، بالرغم من
كل ما اتابها من ازمات في نموها وتطورها ، الحركة الوحيدة التي
تحتفظ بحركة صعود . وقد عكست هذه الظاهرة على حركة البعث
كل صور التطور العام للحياة العربية بعد الحرب العالمية الثانية ،
وجعلت من هذه الحركة نموذجا ، او عينة تكاد تكون ممثلة تمثيلا
علميا لحركة الثورة العربية بوجه عام .

وإذا كانت عبارة « الثورة العربية » المتداولة في قاموس العمل
النضالي والسياسي في الوطن العربي ، تستدعي الى الذهن بصورة
آلية حركات : البعث والناصرية والتجارب التحريرية ذات الطابع
القومي ، في مختلف الاقطار العربية ، وخاصة في الجزائر وليبيا ،
فان حركة البعث تشكل عاملا داخليا في بناء هذه التجارب ، سواء
على الصعيد الايديولوجي ، أم على صعيد التفاعل المتبادل ، القريب
والبعيد ، لذلك فان الظواهر السلبية ، جنبا الى جنب مع الظواهر
الاجيائية ، تجد نفسها موزعة بنسب مختلفة بين فصائل الثورة

العربية التي تجد دوما في البعث الحركة القائمة ، لانها امتلكت
الفكر المتجاوز لنفسه باستمرار ، السابق للمرحلة التاريخية ، القادر
على اضاءة المشكلات العربية وطرح الحلول المتلائمة مع حاجات
المرحلة التاريخية . ولان البعث قد امتلك سر النجاح المتوفر في أية
حركة تاريخية ، وهو : القدرة على التجاوب مع روح الامة ، امتلاك
التنظيم القومي ، والتخطيط القومي والنظرة العلمية الثورية ،
والمفهوم الحضاري المميز لحركة النهضة العربية المعاصرة ، لذلك
كان لا بد ان تشكل هذه الايجابيات خميرة اساسية في تطوير حركة
الثورة العربية بوجه عام ، وان تكون تجربة البعث ملكا للامة
العربية كلها ، بما تقدمه من ايجابيات وسلبيات ، على حد سواء .
فأمام ضخامة الاهداف ، وأمام عظم المؤامرة على الامة العربية
في هذه المرحلة لا بد ان تبرز نواقص تأخذ معنى السلبيات في مقياس
الطموح ، وفي مقياس الحركة الجدلية بين الواقع والممكن . لذلك
نجد ظواهر الانقسام بدأت في البعث وتعمت على الحركات الاخرى ،
كسمة من سمات مرحلة التطور في النضال العربي .

الا ان حزب البعث الذي كان اول من استطاع ان يتجاوز هذه
الظاهرة ، وان تتكشف على ضوء الاحداث القومية حقيقة الزيف
الذي هيمن على الواقع العربي . فلم يبق في وعي الجماهير العربية
غير بعث واحد ، هو المتوجه الى التحرير ، والى فلسطين ، كرمز
للوحدة والحرية والاشتراكية .

* أية صلة ترون بين السياسة والثقافة ؟

— الصلة بين الثقافة والسياسة تطرح في واقع نظريتين متعاكستين : نظرية الواقعية الاشتراكية التي تركز على الجانب السياسي على حساب خصوصية الثقافة والفن والادب ، وهناك النظرة المثالية التي تذهب الى حد اعتبار الطلاق هو الشيء الوحيد المشروع في العلاقة بينهما . وتعتبر ان في السياسة انتقاصا من حرية الثقافة ، وتحويل الثقافة الى اداة فاقدة للابداع ، تابعة وملاحقة لا تتمتع بأية استقلالية .

أيديولوجية البعث في نظرتها الى العلاقة بين الثقافة والسياسة تجنبت المنطلقين السابقين ، واعتبرتهما نتيجة لتطور تاريخي للمعرفة وللنضال السياسي في آن معا .

نقطة الانطلاق في أيديولوجية البعث هي في رفض الثنائية : ثنائية الثقافة والسياسة ، لانهما كل ، والثقافة حسب هذا المنظور هي موقف نظري وعملي من الحياة . لذلك فهي ، بطبيعتها تستوعب الموقف السياسي . فالسياسة تشكل بعدا داخليا من أبعادها ، كما ان السياسة ، حسب منظور البعث ، لم تكن ابدا تعني المواقف المعزولة عن القضية الكبرى ، أي عن اساس الحياة القومية ، وعن حركة النضال القومي . لذلك ترددت في كتابات البعث عبارات تؤكد ان ما يمارسه البعث هو « رسالة » وليس « سياسة » . فهو لا يتعامل فقط مع الواقع بمعطياته المباشرة المحدودة في الزمان

والمكان ، بل يتفاعل مع حركة الواقع . . أي مع مرحلة ، تاريخية ، لها امتداد في الماضي الحضاري للامة . ولها اطلالة على المستقبل ، ففي مقالة « عهد البطولة » كما في محاضرة « ذكرى الرسول العربي » تأكيد على ان الجيل العربي الجديد هو جيل عقيدة ورسالة ، أكثر منه جيل سياسة . والمقصود بذلك لم يكن ابدا مجرد تمييز بين التكتيك السياسي والاستراتيجية السياسية ، والعقيدة الثورية ، بل هو أكثر من ذلك ، لان كل هذه العناصر مندرجة في تصور البعث ضمن اطار مشروع ثوري حضاري ، هو : المنظور الانبعاثي : بعث الامة العربية ، فكل سياسة لا ترتبط بهذا المشروع الحضاري تكون عملا مستهلكا ضمن اطار ظرفي ، ولمصلحة ظرفية ، سواء كانت فردية أم اجتماعية .

« فالسياسة — الرسالة » لا يمكن أن تكون منفصلة عن الثقافة ، وهي التعبير العملي التطبيقي لها .

كما ان « الثقافة — الرسالة » لا يمكن ان تتقلص وتتوقع في قوالب نظرية مجردة بعيدة عن حركة الواقع ، بل هي الفهم العميق لقوانين هذه الحركة ، ووضع هذا الفهم في خدمة النضال من أجل تغيير هذا الواقع .

ولم يغفل البعث ، بالرغم من تأكيده على العلاقة الداخلية بين الثقافة والسياسة في المرحلة الراهنة من حياة الامة العربية ، عن ملاحظة خصوصية كل منهما . فالثقافة ذات بعد داخلي ، سواء في

حياة الفكر أو في وعي الواقع ، هي بعد ثالث يمس لا شعور الجماعة ، ولا شعور الفرد بقدر ما يمس شعورهما ووعيهما وبصيرتهما وشفافية علاقتهما بالإنسان ، وبالطليعة الثورية ، وبحركة الجماهير .

الآن هذه « الخصوصية » للثقافة تشكل بظانة للعمل السياسي ، أي الاحتياطي الرافد بعوامل النجاح للعمل السياسي . وكذلك الأمر بالنسبة للسياسة في علاقتها بالثقافة ، فخصوصيتها - أي خصوصية السياسة - أنها تفاعل مباشر مع الزمان والمكان . مع هذين البعدين المباشرين للواقع ، فهي تجربة ومعاناة دائمة تخلق وحدة حية متطورة باستمرار مع حركة الواقع . لذلك فهي مجال التأثير للإنسان في المحيط ، وهي نقطة التقاء الحرية بالضرورة التقاء ينطوي على إمكانية الإبداع ، كما ينطوي على احتمال الكبت والقسع والأجهاض للبعد الثقافي الكامن وراء الحياة السياسية . فسواء في الإيجاب أم في السلب لا يمكن للسياسة أن تستقل ، أو تنفصل عن الثقافة .

ومن خلال هذه النظرة استطاع البحث أن يكتشف أنواعاً جديدة من الأمية في الحياة العربية . أمية الثقافة ، وأمية السياسة اللتين تعبران عن حالة الانفصال المرضية بين كل منهما . فالأبراج العاجية للمثقفين كانت دوماً ، في نظر البحث ، ملاجئ تنطوي على تناقض مصدره أما التشويه الثقافي ، أو التشويه السياسي . فرد

الفعل على أمراض السياسة دفع ببعض المثقفين إلى رد الفعل ، وإلى الانزواء ، وتلك حالة تعبر عن نقص في المواجهة للمشكلة . مشكلة العلاقة بين الثقافة والسياسة .

كما أن فريقاً من المثقفين كانت ثقافته ، بالأصل ، مجردة . أي « ثقافة مجلوبة » لأنهم انضموا إلى عالم ثقافي آخر . وتلك حالة رافقت المرحلة الاستعمارية ، ومرحلة الانحطاط ، حيث كانت نظرة العربي إلى الغرب نظرة كسيحة ، مسلوبة الشخصية ، وعاجزة عن فهم أولويات الصلة بين الثقافة والحياة القومية ، أي السياسة . فكانت الثقافة بهذا الاعتبار نوعاً جديداً من الاستلاب ، ومن الاستعمار الثقافي ، ومن خلال الأزمات التي كان لابد أن تنشأ بين هذا النموذج من المثقفين وبين الجماهير العربية بدأت ملامح الوعي الجديد الذي يدرك بأن المثقف غير المرتبط بقضية الأمة يعاني نوعاً من الأمية السياسية تماماً كما يعاني السياسي من أمية ثقافية عندما يكتبني بتحويل الأيديولوجية الثورية إلى مجموعة من الشعارات البرغماتية الذرائعية ، ويتعامل مع الظروف الطارئة أكثر مما يتعامل مع قوانين المرحلة ومتطلبات النضال القومي ، أي عندما يصبح كالمثقف المجرد ، مجرد كائن متمركز حول ذاته ، يعتبر كل شيء آخر امتداداً لهذه الذات ، ومسرحاً للدور يلعبه المهرج على المسرح . فالسياسة والثقافة . بمنظور البحث ، هي عملية تربوية تقويمية لأمراض الثقافة والسياسة .

* ومن هنا ما يرد في ادبيات الحزب من ان الثقافة
اداة ثورية تعيد الينا الحياة العربية السليمة
الصالفة ؟

— نعم . . . فالثقافة بهذا المنظور تعني فضح الوعي للذات
القومية ، وفضح الوعي لدور الذات الفردية في بعث الامة العربية ،
لذلك لم تأخذ الثقافة في البعث معنى الانتماء الى تيار ثقافي من
التيارات الثقافية المعروفة في عصرنا ، ولم تأخذ معنى العروبة
السطحية والآلية الى الثقافة العربية التقليدية ، بل كانت الثقافة
تعني خلقا جديدا للفكر وللشخصية وللواقع ، على الصعيدين
الفردى والاجتماعي بالنسبة للامة العربية في هذه المرحلة من التطور .
فالثقافة الانبعاثية هي صعود دائم ، هي ربط للماضي بحركة
الحاضر المشدود الى المستقبل . . . هي ربط للكتاب بحركة الواقع
. . . هي ربط للعوامل الاقتصادية والاجتماعية بالعوامل
السيكولوجية . هي بناء حضارة جديدة من خلال الوعي بأزمة
الواقع الحضاري للامة العربية . هذا الواقع الذي ليس فقط مجزءا
وخاضعا للهينة الامبريالية ومتخلفا تحكمه الفئات الرجعية ،
وتتلاعب بصيره القوى المعادية لتطوره . بل هو واقع يعبر عن
مرحلة انحطاط بالنسبة للامة العربية . . . فهناك علاقة جديدة اذا لم

تفهم كان المنظور الثقافي مشوها . فمرحلة الانحطاط هي حصيلة
تاريخية لعوامل تاريخية . . . الا انها كواقع راهن تلعب دورا سلبيا
في عملية التطور ، لانها تعطي فرحا لا يبداء الامة العربية لكي يضعوا
الصعوبات والعقبات في طريق النهضة العربية ، وتساهم معهم في
تعميق التجزئة وفي كبح التقدم ، وفي جعل التحديات امام الثورة
العربية على مستوى لا تتكافأ معه الا الثورات التاريخية الكبرى .
لذلك فان الثقافة العربية ، بمنظور البعث ، يجب أن تكون من
هذا المستوى التاريخي ، ويجب أن تكون عاملا في تفجير القوى
التاريخية في الامة . أي القوى الثورية في الجماهير العربية .
حتى تتكافأ مع اعدائها وتنتصر .

* لكن .. كيف يمكن للثقافة ان تحقق هذا ؟

— هناك طريق واحدة • حتى تتمكن هذه الثقافة من ان تلعب هذا الدور التاريخي ، هي ان تكون نابعة من قلب الواقع العربي ، متفاعلة ، حتى الصميم ، مع حركة الجماهير العربية ، ومع تراثها القومي ، ومع روح العصر الذي تعيش فيه • أي ان تكون وحدوية خالصة من اية شائبة من شوائب التجزئة ، واشتراكية مبرأة من اية مصلحة تتعارض مع مصلحة الجماهير الكادحة المناضلة في الوطن العربي ، ومؤمنة بالحرية ، أي بالانسان وقيمة الانسان وحضارة الانسان • وبأن علاقة الانسان بالطبيعة وبالمجتمع وبذاته هي جزء من عملية التطور الموضوعي للامة العربية ، وللعالم ككل • • وهي ، أخيراً : الثقافة الوجدوية الاشتراكية المتحررة التي تنظر الى تجربة الانبعاث القومي في المرحلة الراهنة من تاريخ العالم على انها جزء لا يتجزأ من مسيرة الحضارات الكبرى في العالم ، ودرجة من درجات سلم القيم التي كانت البشرية وما تزال تتطلع الى ارتقائها من خلال ازمة الحضارة المعاصرة •

* لا شك ان مسألة كهذه تتطلب شروطاً خاصة ، كما تتطلب نمطاً خاصاً من الثقافة علينا ان نؤسس له •

— طبعاً ، مثل هذه الثقافة لا يمكن أن تولد وان تنمو في ظل العفوية الا على مدى من الزمن هو مدى الحتمية التاريخية، ولكننا في عصر تتعرض فيه الحتمية التاريخية الى عملية استلاب هي ذاتها. فالانظمة المعادية للتطور ولتقدم الانسانية تملك اليوم من المعرفة ومن الوسائل ما تستطيع معه ان تعيق وان تشوه التطور •

إذاً ، لا بد من ان نعترف بأن مثل هذه الثقافة الانبعاثية ، انما تحتاج الى عملية زرع وتعهد وعناية ، سواء على صعيد الحزب الثوري أو على صعيد المدرسة ، أو داخل الثكنة ، وفي المعامل والمزارع • • ولا بد من توفير المناخ الذي تنمو فيه بذور هذه الثقافة • فشمسها وهواؤها وانواؤها تكمن كلها في النضال • فالنضال هو الذي ينعش هذه البذور ويجعلها تنفتح ، وضعف النضال هو الذي يسمح للاعشاب الضارة ان تنمو حولها وتقتلها • لذلك فان ثورية الحزب الثوري ، ونضالية المدرسة ، والمصنع والمزرعة والريف • • الخ هي التي ينبغي ان تتطور ، وان تنفجر حتى تتسارع عمليات النمو في بذور الثقافة الجديدة • • هذه البذور التي وضعتها الايديولوجية العربية الثورية في ارض الواقع العربي •

ومن الطبيعي ان يكون هذا النضال هو من نوع الفكرة ..
أي من طبيعتها نضالا قوميا اشتراكيا تحرريا لا يتوقف عند حدود
الاقطار التي رستها التجزئة ، ولا عند حدود المصالح التي تخلق
الصراع الطبقي ، ولا عند عتبة التخلف الذي خلفته عهود الانحطاط ،
ولا عند حالة الهامشية التاريخية التي بقيت الامة العربية تعانيها
منذ القرن الثالث عشر .. بل هي في تخطي ذلك كله ، وفي تفجير
الحدود وتخطي المصالح والحالات السلبية الموروثة القائمة في
الواقع العربي الراهن ، والتي تعطي التحالف الامبريالي الصهيوني
الرجعي كل الفرص لضرب مكاسب النضال العربي وحركة الثورة
العربية .

ان اقتصاد الحرب ، ومدرسة الحرب ، وثكنة الحرب هي
المدخل الطبيعية لتحقيق ثقافة انبعاثية .. أي ثقافة الحرب على
التجزئة والتخلف والاستغلال الطبقي وعلى اعداء النهضة العربية .
والمرحلة العربية الراهنة ليست الا مخاضا لولادة هذا
المستوى ، وليس تاريخ ثلث قرن من نشوء البعث الاعمالا تمهيدا
لولادة هذه الثقافة العربية الثورية المقاتلة من أجل الوحدة
والحرية والاشتراكية .

* تقدر ادبيات الحزب ، كذلك ، ان الفن والفكر
هما من الوسائل التي يجسد بها المرء فتوة
النفس ، ويبقي على انسانيته سليمة . فكيف
يمكن ان يتحقق هذا ، برأيكم ؟ وعلى أي نحو
ترون الصلة بين الفن والفكر ؟

الفكر ، في منظور البعث ، قوة تاريخية .. قوة لا تقدر ،
سواء من حيث فعل الفكر في العملية التاريخية وفي تزويد الجماهير
والطلائع المناضلة بدليل نظري وبصيرة تستوعب المرحلة التاريخية ،
او من حيث علاقة الفكر ببناء الشخصية الداخلية .

ونستطيع أن نضيف الى اهمية الفكر ودور الفكر أيضا أهمية
الفن ودوره كقوة فاعلة في الابداع الفكري ذاته ، وفي تزويد الطاقة
النفسية والروحية للانسان المناضل بشحنات ايجابية خالقة .

وعلى خلاف ما يدعيه « جان بول سارتر » بأن الفن لا ينبغي ،
ولا يقول شيئا ، فان الفن ، وخاصة في الحالات التي تكون فيها
المعاناة ، النظرية والعملية ، مخاضا لولادة مجتمع جديد ، ولبناء
شخصية جديدة . فالفن في مثل هذه الحالة يقول اشياء كثيرة ، لانه
قوة متفاعلة ، ليس مع نفسية الفنان وتجرباته النظرية ، ولا شعوره
حسب ، بل هو قوة متفاعلة مع جوهر الشخصية الفردية
والاجتماعية . لذلك فان حزب البعث العربي الاشتراكي اتبه ،
منذ البدء ، واكد على جدلية العلاقة بين المعاناة الفكرية والنضالية .

بين تجربة الفرد وتجربة الامة .. لذلك كان « فكر البعث » نوعا
جديدا أصيلا من الفكر يمكن أن نطلق عليه صفة « الفكر
المتنازل » .

كما لم يكن غريبا ان تتحقق داخل عبقرية مؤسس البعث
الاستاذ ميشيل علق هذه العلاقة الجدلية بين الفكر والفن والارادة
والزعة الحضارية وحب الجماهير ، والنظرة الحضارية ، لان
حركة البعث كانت المهاد الاول لنشأة هذه الجدلية بين الفكر والفن
في الحياة النضالية العربية . وفي امتداد هذا الانبعث الى الجيل
العربي الجديد ، والى الامة العربية تحقق ، لأول مرة في حياة العرب
المعاصرة ، هذا الربط الجدلي بين هاتين القوتين التاريخيتين :
الفكر والفن ، لانهما ارتبطا بحركة التاريخ العربي المعاصر ..
وعلى ضوء ذلك كله ، نستطيع ان نتبين حقيقتين :

— الاولى ، هي ان الفكر والفن ليسا مجرايين يعود اليهما
المتنازل عندما يتناهب التعب او عندما يخشى على نفسه من الفرق
في التجربة والضياع في جزئياتها ، والهبوط الى قيعانها الدنيا ..
فمثل هذه النظرة ذات الالوان المثالية والبرجوازية بعيدة عن منظور
البعث .. لان الجيل العربي نفسه ، كما تصوره البعث ، هو اشعاع
لفكرته ، ووحدة الفكر والممارسة النضالية هي المنطلق الاول لمنهج
فكر الحزب . لذلك لم ينشأ فكر البعث بين الجدران الاربع ووراء

المكاتب .. لم ينشأ نشأة اكااديمية ، بل نشأ من خلال المعاناة
والصراع ، وكان دوما يكتشف أفكاره عبر معاركه .

أما الحقيقة الثانية فهي ان فكر البعث قد انطوى على بعدين
اساسيين آخرين هما : البعد الفني ، والبعد الخلفي .. لانه تصدى
للاوضاع العربي من خلال تصور شامل لمرحلة الانحطاط العربية ..
فكان تصوره لمفهوم النهضة العربية تصورا حضاريا .. أي ان
الثورة العربية هي بحد ذاتها عملية تقويم لاعوجاج وتصحيح
لثشويه بلغا حد الخط المصيري على مستقبل الامة العربية ..

اذن ، تقويم الاعوجاج يعني ان مفهوم الثورة هنا هو مفهوم
فني وخلقى . فالنظرة الجمالية ، والنظرة التقييمية الى واقع الامة
العربية الراهن تستوجب الثورة . والتجزئة تفرض الوحدة
كتصحيح لثشويه حل بالامة العربية . كما تفرض تناقضات التخلف
والهيمنة الاستعمارية والاستغلال الطبقي أهداف الحرية
والاشتراكية ، كأهداف وحيدة يتم من خلالها استعادة التكامل
وتحقيق الكمال لنمو الشخصية العربية وتطوير المجتمع العربي
باتجاه حضاري انساني .

— واخيرا يمكن أن نقول بأن لا يمكن تصور دور عاملي
الفكر والفن بمعزل عن العوامل الاساسية الاخرى ، الاقتصادية
والاجتماعية والسياسية ..

الاثنا ، في نفس الوقت ، لا نستطيع ان نتصور هذه العلاقة
لا من خلال منظار مثالي ، ولا من خلال المادية الجدلية .. لانهما
انطلقنا ، بالاصل ، من مفهوم « الثنائية » المعتمدة على مفهوم
فلسفي ما ورائي لهذه العلاقة .. ومفهوم البعث لهذه العلاقة هو من
طراز آخر مستمد من اعتماده على منهج علمي جدلي تاريخي يعتمد
حصيلة العلوم الاجتماعية والنفسية المعاصرة .

وعلى هذا الاساس فان جدلية العلاقة بين شبكة العوامل
المؤثرة في التكوين القومي وفي التغيير البيوي والوظيفي للواقع
العربي تعتمد على ملاحظة العلاقة بين ثلاثة انماط من التركيبات
والوظائف ، هي :

١ - التركيب الاقتصادي - الاجتماعي .

٢ - التركيب الاجتماعي - التقني (سوسيو - تكنيك) .

٣ - التركيب الاجتماعي - الثقافي .

لذلك ، حسب منظور البعث ، لا يمكن تبسيط هذه العلاقة
وقبول التفسيرات التي توحى بعلاقة ميكانيكية ، او جدلية جزئية
بين الاقتصاد والشعر .. بين المجتمع والفن .. بين الفكر والمجتمع
.. بين الفكر والانسان .. وانما استيعاب الابعاد المتعددة لهذه
العلاقة ، ووحدة هذه الابعاد هو المدخل الى نظرة البعث للفكر
والفن في علاقتهما بالانسان المناضل ، وبالامة المناضلة بالفرد
وبالجماهير .. بالامة والانسانية .

* في الاخير .. اود ان اسأل عن فهم « البعث »
لمسألة الالتزام في الادب والفن .. خصوصا
وان هناك تيارات اخرى تطرح هذا المفهوم ،
كالوجودية والماركسية ..

— النظرة الوجودية انطلقت من عكس المقولة التي تجعل
« الموضوعي » هو الهدف ، وجعلت من هدف « الحرية » شيئا
ذاتيا وداخليا وفرديا الى حد بعيد .. حتى بدت الوجودية كما لو
انها النقيض للفكر الماركسي .

ولما كانت نشأة الوجودية مقترنة برد فعل على عالم الحرب
العالمية الثانية ، بصورة رئيسية ، لذلك كان لا بد ان تتطور النظرة
الوجودية الى الحرية والى الالتزام بحيث تستوعب الاطوار
الاجتماعي والبعد الاجتماعي لهذه العلاقة .

بيد ان محور هذه النظرة بقي هو « الفرد » .. وبقيت هي
« الذاتية » ، وعالم الفنان الداخلي ، والاتصار لهذا العالم في وجه
التحديات التي تواجه ضمير البشر في المرحلة الراهنة من التاريخ .
والفكر الاشتراكي ، من طرف آخر ، هو ذاته ، أيضا ، لم يشذ
عن القاعدة .. أي عن سنن التطور .. فلم يكتب بواقعية
اشتراكية ، وبالتركيز على ما هو موضوعي وما هو اجتماعي ،
من خلال منظار تبسيطي فقير المحتوى ، مديرا الظهر ومتجاهلا لعالم
الفنان الداخلي ولعاناته الذاتية ، ولاخياراته الحرة ..

وهذا التطور المزدوج في التفكير الوجودي وفي التفكير الماركسي على حد سواء هو الذي جعل « سارتر » يقترب من الاحزاب الشيوعية ، ويتعامل ويتفاعل مع الحركات الاشتراكية ، ولو تفاعلا سطحيا .. كما ان « سارتر » بالذات لم يعد موضوع حرب واتهام ، كما كان الامر في البداية ..

ونحن من زاوية منظور البعث ننظر الى هذا التطور على انه ظاهرة طبيعية ، لان الفكر العلمي الثوري يزداد تشبها لمعطيات التطور التاريخي المتسارع في عصرنا ، ويزداد مراسا وخبرة ، وتتسع آفاقه فيفلت من قيود القوالب النظرية الجامدة ، ويتحرر من الافكار المسبقة التي ضمر فيها التفاعل مع الواقع الموضوعي ومع العوامل الذاتية في آن معا .

ولان فكر البعث قد انطلق بالاصل انطلاقا حرة من كل قيد يسكن ان يعيق تفاعله مع الحقائق المشخصة ، ومع الدوافع العميقة الشعورية واللا شعورية ، فان نظريته الى الالتزام استطاعت ان تنجو من منزلقات التفكير المجرد ، ومن ردود الفعل ، ومن القوالب فكان منسجبا مع منهجه العلمي الجدلي التاريخي في النظر الى مسألة الالتزام . فهو :

لم يعزل هذه المسألة عن المكان والزمان اللذين تطرح فيهما .. اي الالتزام بماذا ؟ والتزامه من ؟ التزام الفنان العربي يعني ان تفهم

شروط وجود هذا الفنان . الشرط الانساني لوجوده .. والعلاقة الجدلية التي تحكم معاناته مع الواقع الذي يعيش فيه .

وكما ان « سقراط » في القديم قد ربط ربطا جدليا بين المعرفة والفضيلة ، كذلك فان « البعث » ربط وعي الفنان بيقظة وجدانه . لان الفنان هو اكثر ابناء المجتمع تحسسا بمحيطه .. ولا يمكن الا في حالة التشويه الثقافي والاستلاب الثقافي الكاملين ، ان تتصور فنانا تعريبا حقيقيا لا يستوعب بفكره وضميره قضية الامة وما تتعرض له من تحديات مصيرية . فالفنان الحقيقي هو انسان جاد ، يتصل بالوجود اتصالا عميقا ، ولا يمكن ان يكون منه لهوا وعشا وتسلية وان كان العمل الجدي لا يخلو من بعض هذا ، الا ان الفرق واضح بين ان يكون الفنان سجين ذاته ، أو ان يكون سجين الالتزام الاجتماعي القسري ، وبين أن يكون متحررا من السجنين معا ، يحرر ذاته من خلال النضال من اجل تحرير الامة بكاملها من هذين السجنين القاتلين لمعنى الاصاله ولمعنى الحضارة .

فالالتزام ، اذن ، في منظور البعث ، يعني اكتشافا مبدعا وداخليا لهذه العلاقة بين الانسان العربي والنهضة العربية .. بدون ذلك يرتد الالتزام الى رضوخ وخنوع واستسلام لقدرة غاشم .. كما ترتد حرية الفنان الى قطيعة بين الفنان وامته ، وتصبح اغترابا وغربة وتشويها وانحرافا لا يقل وطأة وشدوذا عن الموقف النقيض

الممثل بهجر القناعة والانطباع الذاتي ومكونات الضمير • ففي حالة الامة العربية لا يمكن تصور اكثر من ثلاثة مواقف يشكل الالتزام واحدا منها :

- ١ - الليبرالية المشوهة التي تصل الى حدود الاغتراب الثقافي والتخلي عن القضية القومية وفقدان الشعور بالانتماء الى الامة •• وتلك علة يصاب بسببها الفنان بفقر الدم •
- ٢ - الاستسلام للقسر والانضواء تحت خيمة الواقع ، والاتهازية الواقعية ، وفقدان الحرية •
- ٣ - اما الموقف الثالث ، فهو الالتزام الذي يكون نتيجة طبيعية لاكتشاف الفنان لذاته عبر اكتشاف حقيقة الامة ، ووضع الحرية على طريق الثورة الداخلية ، والثورة القومية •• والتصدي للواقع من خلال التصميم على تغيير الواقع •

المحتويات

البعث وحوار الحضارات ٥

حول المنظور الحضاري للبعث ٢٩

الثقافة والشخصية العربية ٥١

الفلسفة التربوية والثقافة العربية ١١٥

الثورة الثقافية ١٤٣

المؤلفات الاخرى للمؤلف :

- تيار الاصلاحات التربوية بعد الحرب العالمية (باللغة الفرنسية).
- تطور الايديولوجية العربية الثورية (الفكر القومي)
- تطور الفكر الماركسي - عرض ونقد
- الوطن العربي بعد الحرب العالمية الثانية
- في السياسة العربية الثورية
- الفكر العربي الثوري امام تحديات المرحلة
- ايديولوجيات اليسار الجديد في العالم
- دراسات في الفكر الاشتراكي
- تطور الفكر الاشتراكي للبعث
- كتابات فلسطينية
- نظرات في الملامح الاساسية للمرحلة الراهنة
- الوطن العربي والفاشية الجديدة
- ٦ تشرين الاول بين التسوية والتحرير
- من قضايا الثورة والانسان العربي
- الاشتراكية في الوطن العربي
- حركة التحرر العربي امام الفاشية (باللغة الفرنسية)
- في القومية والترقية والثورة
- مقدمة في دراسة المجتمع العربي

تصميم الغلاف : راجحة القدسي

الخطوط : حميد السعدي

الاشراف الفني : نجم عبدالله كاظم

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٣٨١ لسنة ١٩٧٩

TCA
VAVLT
AMED

AL-TURĀTH
AL-SHA'BT

5-8

1981

عاشق خيالها خستاد به وایه وای
۲۷۲۱ قنسا ۱۸۷

۱۳۹۹ هـ - ۱۹۷۹ م

دار الحرية للطباعة بغداد

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والفنون
دار الرشيد للنشر
١٩٧٩

توزيع الدار الوطنية للتوزيع والاعلان

دار الحربية للطباعة - بغداد